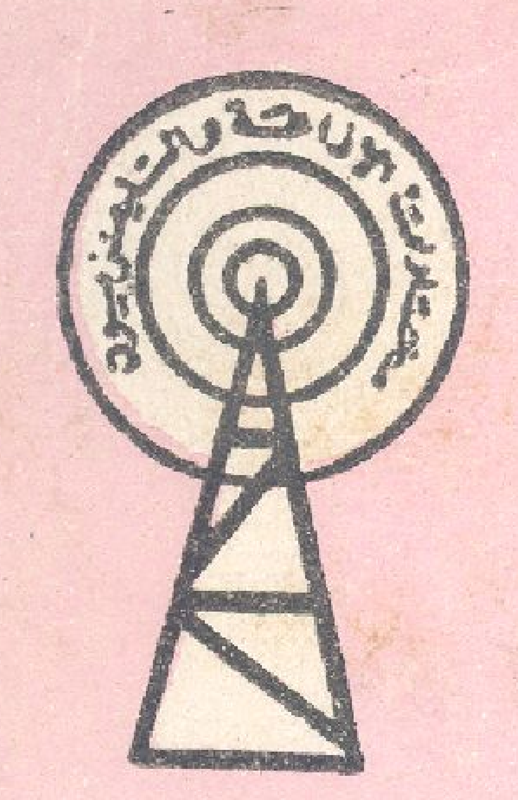


كتب قومية

السَادةُ والعَبيدُ

هلال شتا



كتب قومية

السادة والعبيد

هلال شا

بسم الله الرحمن الرحيم

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتـدوا ان الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخـرجوهم من حيث أخرجوكم » .

صدق الله العظيم

إهـــداء

عندما صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب ، فى أوائل عام ١٩٥٣ أهديته الى ذلك الذى ألهبت جرائمه نوازع حميتنا ، وانبعثت من ظلمات مظالمه شرارة نهضتنا المباركة ٠٠٠ وقد كان ـ فى ذلك الحين ـ يدلف الى طوايا النسيان مجللا بالعار ، دون أن يذكر له أحد فى العالمين ذلك « الفضل » العميم ٠

ومضت عشر سنوات منذ ذلك التاريخ ، كان من أبرزمعالمها أن القضية الوطنية قد تحددت مفاهيمها فى أذهان الشعب العربى فى مصر ، فعرف أنها قضية الوطن العربى كله ٠٠٠ ثم عرفت الأمة العربية ـ من الخليج الى المحيط ـ حقيقة وجودها ، ومقومات عزتها السالفة ٠٠٠ وواجبها حيال ذاتها وحيال البشرية كافة ٠٠٠ وبدأت تسلك سبيلها الى وحدتها الشاملة ، التى مكنتها ذات يوم من أن تصنع التاريخ الانسانى ، والحضارة الانسانية ٠٠٠

وقامت الوحدة بين سورية ومصر ، بارادة شعبية اجماعيـــة نادرة ٠٠ فانبرت فلول الاستعمار والرجعية تدافع عن مصيرها ، بأسلحة الرشوة ، والخديعة ، والحقد ، حتى استطاعت أن تفرض الانفصال على الشعب العربى فى سورية حتى حين ٠٠٠ وأن تجعل من حقيقة الوحدة الدستورية أمانى حبيسة فى الصدور ٠

وقد قدر على أن أشهد النكسة الانفصاليـــة ، وأن أعيش فى دمشق تلك الايام الاولى من المأساة ، مع القلوب النابضة بالوحدة

العربية ، المؤمنة برسالةالقومية العربية ، المتعلقة بزعيمها ورائدها جمال عبد الناصر ٠

فالى هذه القلوب التى غمرتنا ـ فى تلك الايام ـ باصدق عواطف الاخوة الحقة ، والى أخوينا الحبيبين اللذين صاحبانا طوال تلك الايام وأمدانا بأقدس معانى الوفاء٠٠٠فى شجاعةعربية أصيلة والى أولئك الذين خلصوا سورية الحبيبة من براثن الرجعية والانفصالية ٠٠٠ أهدى هذا الكتاب ٠٠٠

هلال شتا

مقدمة

الطبعة الأولى

المرحوم الأستاذ طه عبد الباقي سرور

جماعة القلم هيئة تحريرية ، تأسست منذ خمسة عشر عاما لتجعل من القلم رسولا ورسالة ...

رسولا يحمل الى العقول النور ، والى القلوب الايمان، رسولا يقف في وجه الطغيان أيا كان لونه وأيا كانت صبغته .. ورسالة تمتد آفاقها حتى تشمل الحياة كافة ، رسالة تحريرية شاملة لتحرير العقول من الاستعمار الفكرى الذى ضربته أوربا على آفاقنا، وفرضه الاستبداد الداخلي على تفكيرنا .

وتحرير المجتمع المصرى من الجمود والخمول والضعف، وتنقيته من خبائث المبادىء الجامحة التى تقذفها معامل الالحاد ، ومصانع الفجور ، التى تتميز بها حضارة الآلة الاوربية .

رسالة تعيد الينا الايمان بأنفسنا ، والايمان بأمتنا ،والايمان برسالتنا ، رسالة شعب هو أعرق شعوب التاريخ ، وأمة كانت دائما ، وكانت دائما وحدها ، هى الامينة على رسالات السماء ، فما عرف الايمان الالهى شعبا حفظ رسالاته كهذا الشعب الخالد ؛ الذى لم ينحرف يوما عن واجبه المقدس ، كقمة شامخة سامقة تلجأ اليها فضائل الايمان كلما فقد الناس الايمان بالايمان .

وبذلك يكون أدبنا أدبا أصيلا معبرا عن خصائصنا ، متحدثا عن ذات أنفسنا ، مساهما فى بناء الحضارة الايمانية التى حملنا رسالتها وسنحملها دائما ٠

وكان قوام « جماعة القلم » فى بداية تكوينها الاساتذة : محمود البدوى ومحمد على غريب والدكتور أحمد محمد الحجار وهلال شتا وأحمد فتحى مرسى وحسن حبشى وكاتب هذه السطور وكانت وسيلتنا لتحقيق رسالتنا أن نصدر كتبا دورية باسم «مكتبة الجيب » لتكون فى متناول الجميع لانها كتبت للجميع ، وأصدرنا « الرحيل » « ورجل » لمحمود البدوى ، و (الشفق الاحمر) لهلال شتا ٠

ثم وقفت فى وجهنا عوامل الطغيان الداخلى ، والطغيان الذى كان يقاوم الاحرار ويحارب النور فى كل ميدان وخاصة ميادين الافكار والاقلام ٠

وأصبحنا فى مفترق الطرق اما أن نحنى رءوس الاقلام ، واما أن نتفرق ، وآثرنا التفرق واحتفظنا بكرامة القلم ٠

وتأذن ربك بالنصر الاكبر ، بالتحرير الاعظم ، فكانت وثبة الجيش ، وضربة الاحرار ، وحركة التحرير ٠

وأشرقت الارض بنور ربها ، وأضاءت الوادى مصابيح الحرية ومشاعل الايمان ، وكنا أسعد الناس بالنور ، وأسعد الناس بالحرية ، ومن ثم عادت جماعة القلم لتسهم مع الاحرار ، ولتجاهد مع المجاهدين ، ولتبنى مع البناة من أبطال الجيش وقادة التحرير ٠

لقد تحرك الجيش وحمل الرسالة ، فيجب أن يجند القلم ليحرس الشعلة المقدسة التى يحملها الابطال ، فالاقلام هى الرايات التى تستظل بها الامم ، هى التى تبنى الآفاق وترسم المثل ، وتحدد الاهداف التى تعيش عليها الشعوب ٠

واليوم تسهم جماعة القلم في حركة التحرير بهذا الكتاب ، وهي فخورة كل الفخر ، ان يكون هذا الكتاب هو طليعتهـــا في المعركة ، لانه يحمل في كل صحيفة من صفحاته ، بل في كـــل سطر من سطوره روح التحرير ، روح الايمان ، روح مصر الخالدة ٠

روح مصر التي أراد الطغيان أن تموت وأراد الله أن تحيا ، روح شعب مر به الغزاة والطغاة ، وعاشت تحت سمعه وبصره الدسائس والخيانات ، وجثم على صدره الاستعمار والحكم الفاسد ، حتى اذا ظنوا وظن الناس معهم أن مصر قد توارت بالظلمـــات وتقنعت بالاكفان انتفضت الارض الطيبة ، وثار الشعب الخالد وطلع مع الشمس فتيا غلابا ، لاتقهره الاحداث ، ولا تنال منه الايام ٠

ان هذا الكتاب « السادة والعبيد » هو قصة مصر في قـــرن ونصف ، هو قصتي وقصتك ، قصة أبي وأبيك،قصة جدي وجدك انه صورة التاريخ الحي يعرضها علينا بأسلوبه الساحر الاســـتاذ هلال شتا فوق الشاشة البيضاء ، لا كلمات تقرأ ، بل صورا حية أشد ماتكون الحياة ، وعنيفة صادقة اشد مايكون العنف والصدق٠

انه التاريخ من جديد ، لا كما كتبه الطغيان والاستعمار ، بل كما يكتبه الاحرار والابطال ٠

انه قصة الشعب ، لاقصة الملوك والامراء كما علمونا وكمـــا كتبوا لنا ٠ سنرى فيها انتفاضات الشعب الوطنية بكل مافيها من نبل وفداء ، وبكل مافيها من تضحية وايثار ، كما ستمر بنا مواكب الطغاة ودسائس الجبارين ، من الاتراك والجـــــركس والفرنسيين والانجليز ٠

سنسمع صليل السيف ، ونشم رائحة البارود ، ونلمس بأيدينا الدم ، ونحس بقلوبنا خفقات الارواح ، أرواح المصريين الذين وقفوا في وجه التاريخ كراما صـــابرين ليصنعوا وحـــدهم تاريخهم ٠

سنرى الفلاح المصرى الذى احتقروه جميعـــا وسخروا منه جميعا ، الفلاح المصرى الذى حبسوه فى قماقمهم ثم أطلقـــوا ضحكات الاستهزاء والنصر ، سنرى كيف حطم القماقم ، ثم وثب جبارا عملاقا يسحق بأقدامه ساجنيه ومستعبديه محققا لحن المتنبى الخالد .

كم قد قتلت وكم قدمت عندهـــم
ثم انتفضت فـــزال الموت والكفن

قد كان شاهد دفنى قبل موتهـم
جمـــاعة ثم ماتوا قبل ما دفنوا .

مارس سنة ١٩٥٣

طه عبد الباقى سرور

هذا الكتاب

ان وقائع التاريخ الثابتة قد استعصت على الفناء ··· وبقيت ملكا خالصا للزمان فى امتداده وتعاقب أيامه وسنيه ·· وانعقد عليها اجماع المؤرخين على اختلاف اتجاهاتهم وأهوائهم - رضوا أو كرهوا - وبذلك خلصت من كل آفة ، وبرأت من كل زيف ···

ولكن آفة التاريخ فى رواته ··· وزيفه فى مستغليه ··· اولئك الذين شاءوا أن يستقرئوا الوقائع - الثابتة - عكس مدلولاتها ····· وأن يحملوا الالفاظ الواضحة مالا تطيق من معانى الهوى والغرض والالتواء ···

وبعض هؤلاء الرواة يلتمس له العذر ، لانه أمسك بالقلم فى ظل من سيطرة الفرد واستبداده ونفوذه العريض ·· فأورد الوقائع ثم صمت عن معانيها ·· وقص الحوادث ثم كف عن مراميها ··· واضطر أن يدفع ثمن جهده انحرافا فى بعض المواضع ·· او افتراء لامجاد زائفة يحيط بها رأس الحاكم ورءوس آبائه من قبله ··

وبعضهم قبض الثمن بدل أن يدفعه ··· فكان الهوى والضلال لحمة روايته وسداها ··· أو طمع فى الثمن ، فكان الملق والرياء طابعه وغايته ···

وقليلون جدا نشدوا الحق ولم يحيدوا عنه ··· فبدد الطغيان أكثر ما خلفوا ، قبل أن يتبدد ذلك الطغيان ، ويصبح من الذكريات السود ···

وهذا كتاب أتيح له أن يكتب فى ظل الحرية ... مستندا الى وقائع التاريخ التى اجمع عليها المؤرخون كافة ... مستمدا منها مدلولاتها الصحيحة : أما هدفه فهو الاجابة عن هذا السؤال :

من هم آباؤنا وأجدادنا الاقربون ؟ ومن هم أعداؤنا فى ماضينا القريب ، وفى حاضرنا ومستقبلنا ؟ ومن هم أصحاب السيادة ومن هم سالبوها من العبيد الارقاء عبيد الشهوة والجريمة والطغيان ؟ .

ومتى بدأت ثورة هؤلاء السادة ووثبتهم ، وكيف اتصلت حلقاتها ، وكيف انطلقت ألسنة النيران كلما حسب الظالمون أن شعلتها قد انطفأت ، وكيف توارت تحت الرماد كلما لبس الظالمون مسوح العدل والكرامة ؟.

اننى لن أرجع بك الى بعيد ، ولن أضع بين يديك تراث القرون ، ولن أبسط لك أمجاد آبائك جيلا بعد جيل ، ومظالم حكامك ومطامع غاصبيك ... ولن أتعقب واياك تاريخ نهضتك وكوامن قوتك الشعبية فى العصور الغابرة ... فأحدثك عن « حور محب » القائد الذى سار على رأس جيش الشعب فخلع الملك « اخناتون » دون أن يريق قطرة من الدماء .. وخلص البلاد من الفساد والفوضى ، والعرش من حاشية السوء ... ووضع أسس التشريع وقوائم العدل والاصلاح والاستقرار ..

لن أحدثك عن ذلك ، ولن أوغل واياك فى أعماق القدم ، ولكنى سأبحث معك عن ماضينا القريب ... عن بداية السلسلة التى اتصلت حلقاتها حتى نهضتنا بوثبتنا الاخيرة ، لأعرف أبى وتعرف أباك ، ولنحصى ـ كلانا ـ قطرات الدم التى بذلت من حيويتنا لندفع عن هذه الارض الطيبة دنس الغاصبين ورجس المفسدين ..

سنطوى من عمر الزمان مائة وخمسين عاما فحسب ، حين

كنا ـ أو كان آباؤنا وأجدادنا الاقربون ـ ثلاثة ملايين من السادة الاحرار المغضوبين ٠٠ لنبحث عن أصولنا بين أولئك الملايين الثلاثة، الذين هدهم الظلم والبغى والطغيان ، وأكلتهم الفاقة وحصدتهم الاوبئة ، والذين نهضوا فى وجه الاستعمار الفرنسى ، والظلام التركى ، والعدوان الانجليزى ، وغدر المماليك الأرقاء ، ففقدوا فى مدى عشر سنوات جاهدة ناصبة نصف مليون من الضحايا ، ولكنهم انتصروا فى النهاية على أعدائهم جميعا ، وطهروا منهمأرضنا الطيبة ٠٠

سيجد كل منا أباه بين هذه الملايين الثلاثة ، ويتعرف عليه ، فى قريته أو مدينته ، بل وفى داره أيضا ٠٠٠ فليس فيهم رجل أو امرأة أو غلام لم يحمل السلاح ٠٠ وليس فيهم الا باذل دمه أو روحه فى سبيلى وفى سبيلك ٠٠ ومن أصلابهم وجدنا نحن جميعا ٠٠ ووجدت هذه الملايين ٠٠ ومن أصلاب الأحرار يولد الأحرار ٠

وتلك هى الحلقة الأولى ٠

أما الحلقة الثانية فوثبة الابناء والأحفاد فى وجه الحكم الفاسد الظالم والحاكم الغاشم المعربد ٠٠٠ بعد سنوات من عبث محمد على وأبنائه ٠٠ وهو ذلك الذى أجلسناه بأيدينا فى مكان السلطة والجاه ، وجعلناه ثمرة جهادنا طوال سنوات عدة ، وفرضناه على السلطنة العثمانية المتعالية الجبارة ٠٠ فعض أكف الاحسان التى امتدت اليه ٠٠ وبدد دماءنا فى أرجاء الدنيا ٠٠ واغتصب لنفسه ولأبنائه أرضنا الطيبة ٠٠٠ وفرض العبودية على سادته وصانعى عرشه ٠٠ ثم سارت سلالته الملتاثة على النهج المعوج حتى قامت وثبة الجيش بقيادة ضابط مصرى هو البكباشى لطيف سليم ٠٠ ووثبة الشعب كله بقيادة أولئك السابقين من رواد الحرية والكرامة والسيادة ٠٠

وأما الحلقة الثالثة فهى الوثبة العرابية ٠٠٠ التى فرضت

سلطان الفلاحين ، وكفت عدوان الدخلاء وغطرسة الاذلاء ٠٠ والتى عاقتها وخانتها ـ بعد نصر مؤزر ـ مؤامرات الحاشية الدنيئة ٠٠ ومداهنة الساسة المحترفين المستضعفين ، وجشع الاقطاعيين المخاتلين ٠٠ ثم عدوان المستعمرين الغاصبين الذين تمسحوا بالعرش وصاحبه الذليل ٠٠ والتى كشفت مرة ثانية عن صلابة الشعب ووحدته وبسالته وفدائه والتى أضافت الى معارفنا الوطنية درسا عرفنا كيف نذكره ولا ننساه ٠٠ الا نمهل الرأس الفاسد ، وألا نلقى بالا الى التواء الساسة وهوانهم وجبنهم وأن نضع الجشعين منا والمبتزين فى مكانهم ، وهو مكان العداوة ٠٠٠ أو مكان العضو الفاسد المنحل ، على أقل تقدير ٠٠ وأن نصدر فى أمورنا العليا عن ارادة الشعب وآماله وغاياته ٠

وأما الحلقة الرابعة فهى ثورتنا الشاملة فى وجه الاستعمار الانجليزى وأعوانه وصنائعه ودعائم الحكم الفاسد ٠٠٠ التى بدأت فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ٠ ثم انتهت بوثبة الجيش المصرى المنبعثة من ارادتنا جميعا ٠٠٠ نحن الذين انحدرنا من أصلاب الملايين الثلاثة ، وبذلنا دماءنا مرة بعد مرة ، لنغسل عار الاستعمار ، ولنطهر الحكم من أوضار السلالة الغاشمة الملتاثة التى أجلسنا جدها الأكبر فتنكر لنا وتنكر ابناؤه من بعده ٠٠ وقد فرضناهم على الاستعمار التركى فانقلبوا أدوات للاستعمار فى مختلف صوره ٠٠ تلك الوثبة التى وقاها القادة من اراقة الدماء ، بعد طول ما أرقنا وبذلنا من الدماء ٠

هكذا سنستعيد معا تاريخنا القريب ، فى مدى مائة وخمسين عاما ٠٠ وسنرويه ، مجردا من كل زيف ، مبرأ من كل باطل ، لأنه اليوم يروى فى ضوء الحرية ٠٠

« فأما الزبد فيذهب جفاء ٠٠٠ وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

مارس سنة ١٩٥٣ — دلال احمد شتا

الحلقة الاولى

من أعماق الظلمات

حياة الظلام

هكذا كنا فى شهر يوليه سنة ١٧٩٨ عندما امتدت أطماع نابليون الى الوادى الخصيب ..

كنا ثلاثة ملايين من الأنفس .. وكانت الأرض الطيبة قد رزحت تحت الاثقال قرابة ثلاثة قرون ... وكان الشعب الطيب يرسف فى الاغلال ويعيش فى ظلام الحكم التركى كالأشباح والأطياف ، شقيا جائعا محطما ..

كان السلطان سليم فى ذلك الحين ــ قبل مائتين وثمانين عاما ــ قد استولى على مصر فى سنة ١٥١٧ وأزال سلطان دولة المماليك الجراكسة ثم تركها نهبا لتنازع سلطات ثلاث أقامها فيها ليمتد حبل الفوضى ، ويستشرى الطغيان ، ويحتدم التنافس بين مصاصى الدماء ...

فقد ترك فيها حامية عسكرية لها قائدها ، وترك فيها نائبا للسلطنة ، وترك فيها « البكوات » المماليك حكام الأقاليم ورؤساء الدواوين ..

وكان السلطان سليم قد اعتبر نفسه مالكا لأراضى مصر قاطبة ، وكذلك فعل ابنه سليمان وخلفاؤه من بعده .. فلم يبق للمالك المصرى الا حق الانتفاع بأرضه فاذا مات آلت الى الحكومة ، واذا أراد ورثته الانتفاع بها كان عليهم أن يدفعوا ثمن ذلك الانتفاع الذى يقدره الوالى كما يهوى ويشاء ..

وعلى مدى السنين انطلق المماليك ينتهبون الأرض حتى

امتلكوا ثلث الزمام . وأعطيت البقية للملتزمين بالمزايدة بينهم ، وهم أولئك الذين كانوا يأخـــذون القرى « التزاما » يتوارثونه ويبيعونه ويعبثون فى ظله طغيانا وارهاقا ، مقابل جباية الخراج .

ثم راح الملتزمون يغتصـــبون تركات المتوفين بغير عقب ، ويبتزون أموال الفلاحين مقابل نقل الأرض من فلاح لفلاح ، كمـا أقطعوا أراضى معفاة من كل ضريبة ، هى «الأواسي» التى استخدموا فيها الفلاحين سخرة بغير أجر .

وهكذا نشأ الاقطاع فى مصر ..

وخضع الفلاحون للضرائب الفادحة .. ضريبة فرضت أصلا للسلطان ، وضريبة لحـاكم الاقليم من البكوات المماليك ، وضريبة للملتزمين فى كل منطقة . ثم أضاف الملتزمون الى ذلك كله ضرائب أخرى متعددة الانواع والأسماء .

وخضع غير الفلاحين للضرائب والمكوس والاتاوات عـــلى الصناعات والمواد الغذائية والجمارك والوكائل والسـفن والقوافل والرءوس والوظائف .

وعين السلطان قاضيا تركيا للقضاة ، له نواب ثلاثة كمـــا عين رؤساء القضاة فى المدن والأقاليم . وكان تعيين أولئك جميعا ـ بل وتعيين الوالى نفســـه ـ مقابل اتاوات يدفعونها لحكـــومة الآستانة ، وكانوا يبيعون مناصبهم فى مصر اذا شاءوا مقابل اتاوة أكبر ... فعف شيوخ الأزهر وعلماء المصريين عن ولاية القضاء ، وانطلق تجار « العدالة » يبتزون أموال الناس ، وفسد كل شيء ، وانهارت كل المعانى ، وأهدرت كل المقدسات ..

وأصاب التلف مقومات حياة الشعب فجفت الترع ، وضعفت الارض وتعطلت الزراعة ، واشـــتدت هجرة الاهلين ، واضطرب

الأمن ، واضمحلت الصناعة ، وانقرضت الفنون ، وفتكت الأوبئة بمئات الألوف فمات خلق كثير ·

وكان التنازع ـ منذ البداية ـ قد قام بين الوالى ورؤســـاء الجند · فاستطاع البكوات المماليك أن يستأثروا بالحكم ـ وخاصة عندما ضعفت السلطنة العثمانية ـ حتى أصبح كبيرهم « شـــيخ البلد » أمير مصر وحاكمها الذى يعزل الولاة ويفرض نفوذه عــلى الجميع · وحتى استطاع على بك الكبير أن يخرج على طاعة السلطان فى ١٧٦٣ ·· ثم عادت مصر الى الركاب العثمانى بخيانة محمد أبى الذهب فى سنة ١٧٧٣ ·· ثم تنازع المماليك وانتشرت الفوضى الى ان دهمهم الفرنسيون ·

وفى خلال هذه القرون تعرض الشعب المصرى لما لم يتعرض له شعب ، وتآلفت عليه قوى الشر ، وصبت فــوق رأسه الرزايا التى توشك أن تسود وجه التاريخ الانسانى كله ··

وقد وقع فى براثن الفرنسيين أخيرا · والسيادة فيه معقودة للأرقاء من أولئك المماليك ومماليكهم ··· ولغة الضاد قد توارت وسيطرت لغة الأتراك الدخلاء ··· وشعلة العلم قد انطفــأت أو كادت ـ لولا الأزهر وشيوخه ـ وتردى الفلاحون فى حضيض الفاقة والمرض ، واشتد الارهاق بالملاك والتجار والصناع وأرباب الحرف·

وظن العالم أنها رقدة الموت ·· وأنه دبيب الفناء ···

وراح نابليون بونابرت يلقى ببصره الى الوادى الخصيب · الى ذلك الميدان الذى خلا من عدة الدفاع · والذى يستطيع أن يقهر فيه الانجليز ان ارادوا الوقوف فى سبيله ، بل أن يتخذه طريقــا الى الهند ليغصب من أيديهم درة الامبراطورية ·· وتجــددت فى خياله أحلام لويس التاسع سجين المنصورة ، وأحلام خلفائه التى بددتها الأيام ···

أنداء الفجر :

وبلغ الظـــلام منتهاه ··· ذلك الذى جثم على صـــدر مصر مائتين وثمانين عاما فى حكم الأتراك وأدواتهم المثلومة ··· وبلغ أسطول الحملة الفرنسية ميناء الاسكندرية فى أول يولية ســـنة ١٧٩٨ ·

وواجهت الملايين الثلاثة نابليـــون بونابرت قاهر أوربا ·· وتساقطت أنداء الفجر ··· ونفضت براعم العزة والكرامة ظلمات السنين ، ونبتت البذور الطيبة فى الثرى الطيب ··· وانشقت الأجنة المســـتكنة رويدا رويدا عن ثلاثة ملايين من الأبطال ··· يصنعون المعجزات · ويبلغون المحال ··· ويخيبون ظنون العـــالم كله · والتاريخ كله ··

ولقد بدأت مقاومة المصريين الأحرار منذ اللحظة الأولى ··· وهم يحاربون مع المماليك ··· وسجل التاريخ أن مقاومتهم كانت أقوى من مقاومة المماليك ، وما أقل ما ينصف التـــاريخ ، وما أكثر ما يزخر بالبهتان ·

ولكن المصريين انفردوا بالمقـــاومة بعد هزيمة الممـــاليك ، واستمروا فى جهادهم عشر سنوات كاملة ، فرضخ التاريخ وخفض من جناحه ، وسجل كارها أن فى مصر شعبا قد بعث من أعمـــاق الظلمات ··· ووجد من بذور صلبة أوشك الجفاف أن يأكلها ·· فصنع البداية التى خرجنا منها ··· واتصلت بها حلقات يقظتنـــا وانبعاث وعينا ، بل ووجودنا وكياننا ·

لقد بدأت القصة فى الاسكندرية ··· ولعلها بدأت فى كل مكان فى مصر ، ولكنها رويت ـ أول ما رويت ـ على مسرح الثغر الخالد ··

كانت الاسكندرية فى عزلة عن بقية أرض الوطن ·· وكانت

تعانى عنتا وارهاقا شديدين ... فقد عدا الفساد والاهمال على كل شىء فيها ، وجفت ترعتها فلم تعد مياه النيل ترتفع الى قاعهـا المهمل الا فى موسم الفيضان ...

ومن مياه الفيضان وحدها يستقى السكندريون طوال عامهم من صهاريج أقاموها يملئونها فى كل موسم .

وكان عدد سكان الاسكندرية قد تضـاءل الى خمسـة عشر الفا ، كأنها قرية صغيرة مهجورة .. أو واحة ضـاربة فى أعماق الصحراء ..

ومع ذلك ، فعندما قرع الخطر أسماع أهليها ، سارعوا الى تكوين قوة منهم للدفاع يتزعمها حاكم الاسكندرية وابنها البـار السيد محمد كريم ..

وأشرف الزعيم السكندرى على المعركة المرتقبة من طابيـة قايتباى .. وانطلق الأهالى يحصنون الأسوار ويقيمون المتـاريس ويوزعون السلاح ويستكملون أهبة الدفاع ..

وفى أول يوم لدخول القـوات الفرنسية أرض مصر كانت الآلاف الخمسة عشر تتوثب وتقابل النار بالنار ..

كان الجيش الفرنسى يتقـدم شبرا بشبر والأهالى ـ رجالا ونساء ، وشيوخا وصبية ـ يدافعون عن كل موضع قدم ... من كل بيت ومن كل نافذة ومن كل منعطف ..

ولعبت الخيانة التركية دورها الذليل ... فتقدم قـائد السفينة العثمانية الراسية بالميناء ـ واسمه ادريس بك ـ يطالب الأهالى وقائدهم بالكف عن المقاومة ، بدعوى ان الفرنسيين جاءوا يخلصون البلاد من براثن المماليك .

واستجاب بعض المقاتلين للنداء المتخاذل ... ولكن « محمد

كريم » ظل على مقاومته حتى اللحظـــة الاخيرة ··· بعد أن خسر الفرنسيون ثلثمائة من القتلى والجرحى ··

وحين وقع البطل الوطنى فى الأسر ، كانت خسارة الأهالى قد بلغت ثمانمائة من القتلى والجرحى ··

وأراد نابليون أن يستميل محمد كريم ، وأن يحرق للشعب السكندرى بخور التقرب والزلفى ، فرد للبطل المجاهد سـلاحه ، وأعلن عن تقـديره لشجاعته وبسـالته ، وأبقاه فى منصبه حاكما للاسكندرية ··

ويمضى نابليون فى سبيله ··· ويبقى محمد كريم فى موطنه فلا يحالف المعتدين ولا يغمض عنهم جفنه ··· بل يواصل كفاحه فى صمت وخفاء ··

ان كليبر ـ الذى خلفه نابليون فى حامية الاســكندرية ـ يريد أن يؤمن المواصـــلات الفرنسية بين الاسـكندرية ورشيد ، فيرسل كتيبة لهذا الغرض ·

ولكن محمد كريم يعلم بالنبأ ، فتختفى الجمال من الاسكندرية فجأة ، وتعجز الكتيبة عن التزود بحاجاتها من الماء ··· ولا تعود الجمال الى الظهـــور الا بعد أن تمضى الكتيبة فى طريقهـا الجدب المحفوف بالأخطار ··

ثم تلقى الكتيبة مقاومة فى كل مكان ··· حتى تبلغ دمنهور فيهاجمها ستة آلاف من المقاتلين المصريين ويوقعون بها الهزيمة ·

وتنسحب الكتيبـة الفرنســية الى بركة غطاس فيهاجمهـا المصريون ويهزمونها ... وتعجز الكتيبة عن بلوغ غايتها . فتعود أدراجهـا منهوكة القـوى مثخنـة الجـراح ، ويتميز كليبر غيظـا فيقبض على الســيد محمد كريم ويبعث به الى أبى قير ـ مرسى الاسطول الفرنسى ـ ثم الى رشيد وأخيرا الى القاهرة ··

ويسفر نابليون عن وجهه ويكشف عن عدوانه ، بعد طول استخفاء ورياء .. ويقضي مجلسه العسكرى بادانة محمد كريم ، الذى قاوم الفرنسيين المعتدين .

وأخيرا - وفى ٥ من سبتمبر سنة ١٧٩٨ - يجترىء نابليون فيأمر باعدام البطل السكندرى رميا بالرصاص ... وبمصادرة أملاكه وأمواله ...

ويعرض الفرنسيون على محمد كريم أن يفتدى نفسه بغرامة قدرها ثلاثون ألف ريال فيأبى ، وينفذ فيه حكم الاعدام فى ٦ من سبتمبر سنة ١٧٩٨ .

ولم يكن محمد كريم هو أول الضحايا ... أو أول الشهداء ... فقد سبقه اخوان له الى الشهادة والفداء ... اخوان بلغوا الآلاف ..

وقدة الشعلة :

وكذلك صنع المصريون فى شبراخيت ... وفى القاهرة :

كان الاسطول الفرنسى يشق طريقه فى النيل ، فالتقى به أسطول مراد بك عند شبراخيت ، ودارت المعركة ..

واحتشدت جموع المقاتلين الوطنيين على شاطىء النيل وراحت تهاجم الفرنسيين ، حتى أغرقت خمس سفن واستولت على سفينتين مسلحتين ..

تم ذلك كله قبل استيلاء نابليون على شبراخيت ...

ثم مضى الجيش الفرنسى فى طريقه الى القاهرة ، فواجهه مقاومة وطنية فى كل مكان ، وظل الوطنيون يهاجمون جوانب وحواشيه ، ويوقعون به ما استطاعوا ... ولكنهم اخلوا قراهم

الواقعة فى سبيله ... ومع ذلك فلم يعف الفرنسيون الشرفاء عن نهبها .

وقبل وصول الجيش الفرنسى الى امبابة ، شغل المماليك بشئونهم وممتلكاتهم وأموالهم وأمتعتهم ، وانطلقوا يحملون ما يستطيعون حمله ويولون الأدبار ... فنهض الشعب وحده بعبء المقاومة ... وانبعث النفير العام فخرج الأهالى الى المتاريس فى بولاق ، وتقاطرت وفود المتطوعين للقتال ، واكتتبت طوائف أهل الصناعات لتجهيز المحاربين وتوفير عدة الدفاع ..

وفى معركة امبابة ذاتها التى قتل فيها ألفان من المماليك كانت ضحايا الشعب المصرى خمسة آلاف ..

فمن هم أبطال شبراخيت ؟ ومن هم شهداء امبابة وبولاق وأسودهما البواسل ؟ ... انهم كل مصرى من أجدادك الأقربين .

وكذلك كان أجدادنا المحاربون فى كل قرية ومدينة ... وفى كل شبر من أرض مصر شماليها وجنوبيها ..

قاومت جموع الأهالى فى « أبو زعبل » فردوا الفرنسيين الى الخانكة .. وداهموهم فى الخانكة فردوهم على أعقابهم الى المرج .. ولم يستطع الفرنسيون أن يعودوا الى الخانكة فى طريقهم الى بلبيس الا بعد أن وصلتهم قوات المدد ..

وقاد نابليون بنفسه حملة بلبيس ، فوصلها فى ٩ من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، ولكن ابراهيم بك كان قد تركها فى طريقه الى الشام .. وفى ١١ من أغسطس نشبت معركة الصالحية فكانت شديدة على الفرنسيين ثم انسحب المماليك الى الحدود السورية .. فاتخذ الفرنسيون مسجد الصالحية مركزا عسكريا ، لأنهم ـ كما ادعى نابليون ـ يحترمون الاسلام ويصلون على نبيه !! ..

واستمرت المقاومة فى كل مكان من الشرقية .. ثم اشتد أوارها فى أوائل اكتوبر سنة ١٧٩٨ مع بداية الثورة الاولى فى القاهرة ..

وقد ظل الأهلون يهاجمون معسكرات الفرنسيين فى بلبيس وغيرها من المواقع ... وظلت الحرب سجالا ولكنها لم تهدأ ولم تتوقف ..

ونهضت المنصورة بواجبها .. وهى التى أسرت ملك فرنسا وأذلت تاجه من قبل ...

ففى ١٠ من أغسطس سنة ١٧٩٨ نودى بالثورة ...وهوجم الجنود الفرنسيون ، وحوصر معسكرهم. ودكه الأبطال على رءوسهم ولم يستطع المهزومون أن يهربوا بالسفن ، فان الابطال الوطنيين قطعوا عليهم الطريق وحصدوا رقابهم .. وكتبت قصة«السنيورة» التى لم تزل عالقة بالاذهان ، فان شيخ العرب أبو قورة - الذى غنم من الفرنسيين مدافع لم تزل محفوظة فى المتحف الحربى - قد سبى ابنة أحد الضباط الفرنسيين وتزوج بها . وتلك هى « السنيورة » التى تناقل الأهلون أخبارها ..

وقد سارع الفرنسيون الىالاخذ بالثأر فأوفدوا قوةعسكرية، ولكنها لم تجد جيوش الوطنيين وجموع الابطال وعلى رأسهم الامير مصطفى وعلى العديسى ... وراحت تجرد الحملات على القرى دون جدوى ..

واشتدت المقاومة فى الدقهلية كلها ، وقام الابطال الوطنيون بأمجد الاعمال فى سنباط . وفى ميت غمر ودنديط .. وكبدوا القوات الفرنسية أفدح الخسائر . وعاقوا تقدمها ثم انسحبوا سراعا الى « الهوابر » .

وفشلت الحملة الفرنسية على البحر الصغير ومدائنه وقراه ،

وتزعم حســن طوبار شيخ المنزلة حشــود الثوار فى الاقليم كله ، وألقى فى وجه الفرنسيين بأسطول من مراكب الصــيد المسلحة ، كما تم التعاون البرى بينه وبين الامير مصطفى وعلى العديسى ..

ويذكر التاريخ معركة الجمالية . والعــار الذى سود وجوه الفرنسيين .. عار احراق المدائن والقرى وتخريبها ونهبها .. كما يذكر معركة دمياط التى استمرت طوال ليلة ١٦ من سبتمبر سنة ١٧٩٨ بين القوة الفرنسية والوطنيين المهاجمين من البر والبحر .. ويذكر معركة « الشــعرا » وينتقل بين المدن والقرى فتذهله مقاومة الاهلين . ويغمض عينيــه عن فظائع الفرنســيين فى ميت الخــولى وأمثالها من معاقل المكافحين .

وتوثب أهالى رشيد — فى الجانب المقابل من أرض الدلتا — ووقعت حادثة الســالمية حين قتل الوطنيون رســل الفرنسيين الى قائدهم نابليون فسار سفاحهم «منوى» الى القرية المجاهدة فأحرقها وقتل تسعة من أهاليها ..

وقامتشباس عمير. فتابع السفاحوحشيته وأشعل فيها النار ثم انسحب من وجه أهلها البواسل غارقا فى العار ..

وهبت قرى البحيرة ومدائنها تناوىء المستعمرين وتقــاوم كتائبهم .. فأطلق الفرنسيون سهام النذالة فى كل مكان ..

أحرقوا بركة غطاس ونهبوها بعد أن ذاقوا من سكانها أهوال الجحيم .. وردوا على بسالة رشــيد وأبى قير وشــمال البحيرة فى نوفمبر سنة١٧٩٨ بالقبض على مشايخالبلاد وقتلهم رميا بالرصاص فى رشيد .. وباعدام زعماء المقاومة فى دمنهور ..

وظلت القوات الوطنية تتجمع وتوغل فى الصحراء وتتصــل حلقات مقاومتها وأمجادها وفدائها النادر ..

ونعود أدراجنا الى العاصمة الخالدة الزاخرة بالاعاجيب ..

ان نابليون يتملق المصريين وزعمــائهم بعد معركة امبــابة ثم يدخل المدينة فى ٢٤ من يولية سنة ١٧٩٨ ويؤلف « الديوان » من تسعة من الشيوخ ويسند اليهم حكومة القاهرة الخاضعة لرقابته ونفوذه ··· ويمضى فى خداعه فيؤلف دواوين الاقاليم ثم الديوان العام · والمجمع العــلمى المصرى من الفرنســيين الذين رافقوه فى حملته ··

وتمضى أشــهر ثلاثة تستجمع فيهــا القاهرة أنفاســها بعد جهادها الباهر فى معركة امبابة وبولاق·· ثم تقوم الثورة المقدسة·

ان المدينة تهب فجأة . فتموج بالابطال ..

الشيخ عبــد الله الشرقاوى ـ رئيس الديوان العــام ـ يلقى بطيلسان الجمهــورية الفرنســية على الارض فى منزل نابليون ويستقيل ·· وتسرى روح المقاومة بين الجمـوع سريان اللهيب ·· وتجتمع لجنــة الثلاثين فى ليــلة الاحد ٢١ من أكتوبر ســنة ١٧٩٨ بزعامة السيد محمد السادات لتنظيم التطوع واعداد عدة القتال ··

ولقد كان اجتماعهــا فى الازهــر ··· ومن الازهــر انبعثت الثورة وانطلقت جيوش الوطنيين ··· وفى صباح ذلك اليــوم ـ الاحد ٢١ من اكتوبر ـ احتشــدت الجمــوع · وظهرت الاســلحة من مكامنها واشترك الفلاحون من سكان الضواحى والقرى القريبــة فى معركة الكرامة ··

هاجم الثوار مخافر الفرنســـيين ، وقتلوا الجنرال ديبوى قومندان القاهرة · وهزموا رجاله فى الغورية ··· ونفخ فى النفير العام ··· وباتت المدينة كلها ثائرة متوهجة ··

وفى ٢٢ من أكتوبر دار القتال فى الميادين والشوارع، والبيوت والمساجد وقتل ياور نابليون ··· وترامى الفرنسيون عنــد أقدام

أعضاء الديوان فرفض الشعب المقاتل وساطة أعضاء الديوان وتتابعت أوامر القيادة الشعبية وطاشت أحلام الفرنسيين ..

وأقدم نابليون على أخس فعلة فى تاريخه .. فضرب الازهر بالمدافع . ثم راح يضرب المدينة كلها ليهدمها على الشيوخ والنساء والاطفال ...

ونسى التاريخ أن يتحسر على الشرف الفرنسى الضائع ، ولكن القوات الشعبية لم تنس المدينة الخالدة ... والشيوخ الواهنين... النساء المحصنات ... والاطفال الابرياء ... فألقوا السلاح ... وأخيرا توقف الضرب البربرى فى الساعة الثامنة من ذلك المساء وكان عدد الضحايا من الوطنين أربعة آلاف ..

وأمعن الفرنسيون فى بربريتهم فقاموا بحملات تفتيشية عدوانية على العزل الشرفاء وسودوا وجه التاريخ بمظالمهم . فاستباحوا الحرمات . وأعدموا المئات بغير محاكمة .. وملئوا السجون بالابطال ... ثم توجوا «مفاخرهم» باعدام المشايخ: أحمد الشرقاوى وعبد الوهاب الشبراوى ويوسف المصيلحى وسليمان الجوسقى واسماعيل البراوى ، وثمانية من اخوانهم العلماء .. وكان اعدامهم سرا فى يوم ٤ من نوفمبر سنة ١٧٩٨ ...

وأبطلت مهزلة « الديوان » وأقيمت قلاع الارهاب فى كل مكان ..

القلب الخفاق :

ولكن هل حبست ألسنة اللهب بعد هدأة القاهرة ؟..

كلا ... انها استعرت بدل أن تنطفىء ..

وقد استطاع الفرنسيون أن ينطلقوا فى آثار الريفيين

المجاهدين الى الضواحي والقرى القريبة ، وأن يعدموا الاعيان والمشايخ ويعتقلوهم •• ولكن قواتهم عجزت عن أن تنال من قلب الدلتا •• وتعرضت للهزيمة والخسران فى كل مكان من ذلك القلب الخفاق ••

اشتدت المقاومة فى المنوفية والغربية •• وأفسح التاريخ احدى صفحاته لقريتى غمرين وتتا حيث قاتل الرجال والنساء •• وضربوا أعلى أمثلة البسالة والفداء ••• وهلكوا دون ديارهم قبل أن يمكنوا السفاحين من احراق القريتين الخالدتين ••

وفى أوائل أكتوبر سنة ١٧٩٨ التهبت مدينة طنطا•• وكانت تزخر بالمجاهدين فى مولد السيد أحمد البدوى عندما قامت الثورة المسلحة فى ٧ أكتوبر ••• ودارت رحى القتال بين الوطنيين والفرنسيين عدة ساعات ثم توارت السنة اللهب الى حين ••

وباغت الفرنسيون قرية عشما فى الساعة الثانية من صباح يوم ٢٠ من أكتوبر سنة ١٧٩٨ فقامت الى السلاح ، وظل زعيمها أبو شعير ، يذود عن معقله حتى الرمق الاخير ••

وامتدت خفقات القلب الجريح جنوبا فهب الصعيد يسارع الى القتال ، ويتخذ مكانه فى الصفحات المجيدة التى كتبها الاحرار ••

كان الفرنسيون قد احتلوا بنى سويف والبهنسا وتابعوا سيرهم الى أسيوط ثم عادوا أدراجهم الى الفيوم ••

وفى ٧ من أكتوبر سنة ١٧٩٨ بدأت المقاومة بمعركة سندمنت ••• واستمرت جموع الوطنيين تضرب ضرباتها المتفرقة المباغتة حتى قامت ثورة الفيوم •• ثم استأنف الفرنسيون الحملة على الصعيد فلقوا فى كل خطوة ما أذهلهم ••

كانت المقاومة الوطنية تنهض بها الجماعات ، وأحيانا كان يقدم عليها الأفراد •• وقد تناقل التاريخ قصة «المجاهد الصغير» بطل

حادثة القضاعى ·· وهو صبى حدث جال بمفرده بين جموع الفرنسيين وراح يتغافل الجنود ويستولى على بنادقهم·

وقد ألقى القبض على الغلام العجيب ·· وعقدت الدهشة ألسنة القادة والجنود ، ولكن المصريين لم يدهشوا ، لان كل صبى فى مصر كان ذلك المجاهد الصغير ·

هل نمضى مع أجدادنا جنوبا الى أقاصى الصعيد ، أم نطوى سنة ١٧٩٨ لنبدأ عاما جديدا نتابع فيه هؤلاء الأجداد فى الجنوب والشمال ؟

لقد مضى ذلك العام الحافل بالجهود والتضحيات ، فكشف عن حقيقة الشعب المناضل ووجوه السادة الاحرار ، وهى حقيقة توارت طوال القرون الثلاثة وراء حجب الظلام ·

ألسنة اللهب :

وبدأ عام ١٧٩٩ والكفاح المستميت هو طابع الشعب المناضل ورائده ، والثورة المشبوبة يتسع مداها ليصل الى كل بقعة من أرض مصر ··

ولنمض فى سبيلنا جنوبا لنطالع قطرات الدم تغمر وجه الصعيد ، قبل أن نعود أدراجنا الى الشمال ·

ان القوات الفرنسية تحتل أسيوط ، فتشتعل الثورة على طول الوادى بين أسيوط وجرجا ·· وتنشب معارك سوهاج ، وطهطا وسمهود · ثم تبلغ القوات الفرنسية مدينة أسوان فى أول فبراير سنة ١٧٩٩ فتتجمع قوات المقاومة فى جزيرة فيلة لتصلى المعتدين نيرانا لاتخمد ·

ولا يكاد الفرنسيون يظنون أن الصعيد قد استكان ، حتى يتجدد القتال بين جرجا واسوان ، وتنشب معارك الدريسة فى ١١

من فبراير وقنا فى ١٢ من فبراير وأبو منـــاع في ١٧ من فبراير واسنا فى ٢٥ من فبراير ٠٠ وتسيل دماء الوطنيين ويثخن الفرنسيون بالجراح ٠٠

ولا تفتر مقاومة الصعيد ٠٠ فتنشب معركة «بارود» النيلية فى ٣ من مارس سنة ١٧٩٩ ٠٠ التى ألحق الوطنيون فيها بالأسطول الفرنسى كارثة ، وكبدوه ٥٠٠ قتيل والسفينة الحربية «ايتاليا» ٠ ثم نشبت معركة الصوامعة فى ٥ من مارس ، ومعركة قفط فى ٨ من مارس ومعركة أبنود فى ٩ و ١٠ من مارس ومعركة بئر عنبر فى ٢ من ابريل ٠٠

وهبت الثورة مرة أخرى بين قناوجرجا ٠٠ ونشبت معركة برديس فى ٦ من ابريل فتقهقر الفرنسيون الى جرجا ، ثم نشبت معركة جرجا فى ٧ من ابريل ٠٠ ثم واقعة جهينـــة ٠٠ وتأججت الثورة فى بنى عدى ، ونشبت معركة أبو جرج ٠

وامتدت ألسنة اللهب الى المنيا وقامت معركتها الداميـة التى استمرت أياما ثلاثة هى ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ من ابريل من ذلك العام ٠

وتطاير الشرر الى أطفيح ٠٠ ثم وقعت واقعة أسوان فى ١٦ من مايو ٠٠ وانطلقت شرارة عبر الصحراء الشرقية فقامت معركة القصير فى ٢٩ من مايو ٠

ولنترك الصعيد فى ملاحمه الخارقة ٠٠ لنتابع ألسنة اللهب فى الوجه البحرى مرة أخرى ٠

لقد بدأ عام ١٧٩٩ والسويس محتلة بالفرنسيين بعد أن أخلاها سكانها ٠٠ وزحفت الحملة الفرنسية على سورية ٠٠ ولحق نابليون بهذه الحملة فى ١٠ من فبراير سنة ١٧٩٩ ٠٠ وليست تلك الحملة الفرنسية من وقائع هذا الكتاب ٠٠ ولكن نابليون عند احتلاله يافا وجد بها السيد عمر مكرم ٠٠ نقيب الأشراف فى مصر الذى هاجر

منها عندما دهمتها إلجيوش الفرنسية ·· وعمر مكرم زعيم الوطنية المصرية الاول ، فى هذه الفترة التى نستجلى تاريخها · وأول أعلام هذا الكتاب ·· وقد أعاده نابليون الى القاهرة حين وقعت يافا فى قبضته ·

لقد مضى شهر على رحيل نابليون عن القـاهرة ، وهى تخفى جذوة الثورة تحت أستار من الهدوء ·· أما غيرهـــا من القرى فلم تستطع أن تحبس اللهب فى صدورها ·

ثارت الشرقية ووقعت واقعة بردين فى أول مارس التى انتصر فيها الوطنيون ·· وانتقم الأشرار بعدئذ من بردين فأحرقوها فى ٦ من مارس ·

وقام أمير الحج المصرى والشيخ الفيومى بالدعوة الى الجهاد فى داخلية البلاد ، وكان نابليون قد صحبهما معه فى طريقه الى سورية فتخلفا فى بلبيس · ·وقد انضوى تحت لوائهما المشايخ والاهـالى فى كل مكان بلغاه ·

وامتد اللهب الى الدقهلية مرة أخرى ·· ومن منطقة ميت غمر امتد الى القليوبية ·· وقامت فى شهر مايو معارك متفرقة ·· ثم معركة كفر نجم فى ٥ يونيه ·

ونهضت الاسكندرية والبحيرة ورشيد من غفوة الهـــدوء ·· وكانت قومة رشيد فى شهر مارس سنة ١٧٩٩ وقومة البحيرة فى شهر ابريل ·

فى ليلة ٢٥ من ابريل هاجم الوطنيون حامية دمنهور الفرنسية وقتلوا رجالها جميعا ·

وفى ٢٧ من ابريل قامت معركة فى قطاع دمنهور الرحمانية وانتصر الوطنيون ·· وانسحبت القوات الفرنسية الى الاسكندرية وفى ٣ من مايو نشبت معركة سنهور وانسحب الفرنسيون أيضا ·

وعاد الفرنسيون الى دمنهور ، فاحتلوها فى ١٠ من مايو بعد فظائع دامية كانت نهايتها احراق المدينة الباسلة .

وفى ١٩ من يونيه هاجم الوطنيون سفينة حربيـــة فى فرع رشيد تجاه طنوب وقتلوا «الجنرال دومارتا» .

وكان نابليون قد عاد الى مصر فى ١٢ من يونيـــه ، ثم قاد معركة أبو قير ضد العثمانيين فى ٢٥ من يونيه .. وحين جاء القاهرة فى ١١ من أغسطس لم يلبث سوى أيام قلائل حتى غادرها خفية فى ١٨ من أغسطس فى طريقه الى فرنسا التى كان الخطر محدقا بهـــا والقلق يكتنفها .

ورحل نابليون عن أرض مصر فى ٢٢ من أغسطس مخلفا على رأس القوات الفرنسية الجنرال كليبر .. وبدأت مرحلة أخرى من مراحل الجهاد .

نهاية الفرنسيين :

ان نهاية سنة ١٧٩٩ قد شهدت فترة من الهدوء النسبى فى القاهرة وفى الأقاليم .. فقد بدأت مســـاعى الصلح بين الأتراك والفرنسيين .. ثم عقد الصلح فعلا فى ٢٤ من يناير سنة ١٨٠٠ (معاهدة العريش) وتعهد الفرنسيون بالجلاء فى مدى ثلاثة أشـــهر بلا قيد ولا شرط .. ثم شرعوا يعدون عدة الرحيل .. بعـــد أن أصلتهم الوطنية المصرية نيرانها منذ وطئت أقدامهم أرضنا الطيبة .

ولكن الانجليز ــ الذين كانوا وسطاء الصلح بين الفرنسيين والعثمانيين ــ أفسدوا كل شىء ، فقد أعلنوا عن عزمهـــم على قطع الطريق على الفرنسيين فى البحر ، وأسرهم ، فتحرج مركز كليبر وعز عليه الفرار .. وفرض عليـــه أن يلقى أهوالا أخرى على أيدى الوطنية المصرية كان آخرها مصرعه .

وشهدت مصر ، الى جانب العدوان الفرنسي الذى دافعته وقاتلته ، ألوانا من المظالم التركية التى طويت صفحتها منذ الاحتلال الفرنسي ‎٠٠‏ وأصبح الجيشان الدخيلان في القاهرة وجها لوجه فقامت بينهما الحرب من جديد ، على أراضينا وفى ديارنا ٠

وانتصر الفرنسيون على الأتراك في عين شمس في ‎٢٠‏ من مارس سنة ‎١٨٠٠‏ وتقهقر العثمانيون الى بلبيس ثم الى الصالحية ٠

ونهضت روح المقاومة في القاهرة في يوم ‎٢٠‏ مارس ذاته ، والمعركة دائرة بين الدخلاء ‎٠٠‏ وانضم الى الرءوس ــ السادات والمحروقي والجوهرى ــ كبيرهم عمر مكرم ٠

ومرة أخرى انطلقت الشرارة الاولى فى بولاق ‎٠٠‏ ثم هاجم الوطنيون معسكر القيادة الفرنسية العامة ‎٠٠‏ واشتعلت المدينة كلها حماسا وتوثبا ‎٠٠‏

وفى ‎٢١‏ من مارس انتظمت الثورة المسلحة طبقات الشعب عامة ، واتسع نطاقها ٠ واستعرت جذوتها ٠

وفى ‎٢٣‏ من مارس عاد كليبر الى العاصمة وراح يبث سموم الفرقة ويحاول مصالحة الأتراك والمماليك ‎٠٠‏ وخان المماليك ــ على دأبهم ــ تلك الأرض التى سقتهم رحيق السيادة وهم العبيد ، فعقدوا صلحا مع الفرنسيين فى ٥ من ابريل سنة ‎١٨٠٠‏ ، ولكن الوطنيين لم تهن عزائمهم بل شحذت منهم العزائم ، واستمروا على قتال الفرنسيين منذ عشرين مارس الى ‎٢١‏ من ابريل ٠

وفى خلال هذه الايام ، لم تحتبس قطرة دم وطنية عن البذل ولم يكف ساعد مصرى عن الجهاد ، ولم يصمت دوى المدافع ودمدمة الرصاص ساعة واحدة ٠ ٠ بل تقاطرت القنابل على المدينة الخالدة ولم تعف الأيدى الفرنسية عن اشعال الحرائق ، وتسليط معاول التدمير ، واقامة المذابح الوحشية فى كل مكان تمكنت منه ٠

وقد ألقت المدينة سلاحها صيانة للبقية الباقية من معالمها ، وارتكانا الى العهود التي قطعت والمواثيق التى أبرمت بين الجانبين ·· ولكن الفرنسيين لم يلبثوا أن نقضوا تلك العهود والمواثيق ، فشرعوا يصادرون أملاك الزعماء ، ويفرضون الغرامات على الأهالى ·

وفي لحظة طيش ، اعتقل خائنو العهد محمد السادات وأهانوه فغلت مراجل الغضب في صدور الوطنيين ، وتسلل طالب علم فى الرابعة والعشرين من عمره هو الشهيد سليمان الحلبى فرد الاهانة بطعنة خنجر وجهها الى صدر كليبر ·· فأخمد انفاسه فى ١٤ من يونيه سنة ١٨٠٠ ·

وطاشت أحلام الظلمة العتاة ، وحاولوا أن يأخذوا بفعلة البطل الشاب شيوخ الأزهر وعلماءه .. ولكنهم لم يستطيعوا فاكتفت محكمتهم العسكرية بأن تقضى باحراق يد الفتى واعدامه على الخازوق وترك جثته طعاما للطيور واعدام ثلاثة من اخوانه الطلبة الازهريين·

وهكذا شهدت مصر لونا آخر من ألوان «العدالة» الفرنسية ، «والرقى» آلفرنسى ·

وأغلق الأزهر ··

وانطلق الجنرال مينو خليفة كليبر يعيث فى المدينة نهبا وارهاقا وتخريبا ·

وفى ٨ من مارس سنة ١٨٠١ وصلت الحملة العثمانية الانجليزية الى أبو قير ·· وكان الفرنسيون قد أمضوا ثلاث سنوات في مصر ، يتلقون طعنات المجاهدين المصريين ويستقبلون جموعهم المقاتلة فى كل مدينة وقرية ·· وفى كل صباح ومساء ·· وكانت الجراح قد أثخنتهم ، وكانوا قد هموا من قبل بالفرار من هذا الجحيم ·· وهكذا كان طبيعيا أن يتراجعوا أمام الحملة الوافدة فى معركة أبو قير ثم فى معركة سيدى جابر فى ١٣من مارس ·

ولكن الفرنسيين ـ وهم يتراجعون ـ كانوا قد عرفوا قاهرهم الأول ·· فراحوا يوجهون اليه سهام ضغينتهم وعدوانهم المغلوب · وكان قاهرهم الاول هم أبناء مصر المجاهدين ·· أولئك الذين أوهنوا قوتهم ، وكتبوا أول سطور هزيمتهم ·

والتاريخ لم يذكرهم بأسمائهم ·· والفن القصصى لم يحفل بأمجادهم لان التاريخ والفن كثيرا ما يتملقان السلطة والنفوذ ·· وقد شغلا أقلامهما بنابليون وخلفائه ومعاونيه ·

وذكر التاريخ أسماء بعض قادتنا الوطنيين ـ فى تلك الملاحم الدامية ـ ممن يتردد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ولكن الوقودالانسانى المبرور لم تتسع له الصفحات ، ووسعته آفاق الخلود ·· ووسعت دماءه المراقة أرض الوطن العزيز ·· ثم سرت بقية من هذه الدماء فى عروقنا نحن ·· فى عروق عشرين مليونا يبحثون اليوم عن أجدادهم الأقربين ·

وحلت نهاية الفرنسيين ··

ففى ٢١ من مارس سنة ١٨٠١ هزموا فى معركة الاسكندرية ·

وفى ٩ من مايو هزموا فى الرحمانية ·

وفى ١٦ من مايو هزموا فى الزوامل ·

وفى ٢٧ من يونيه وقعوا اتفاقية الجلاء ·· وجلوا فعلا عن القاهرة فى ٣١ من أغسطس وعن الاسكندرية فى ٢ من سبتمبر ··

وأخلى سراح المشايخ والعلماء والأعيان ·· وتجمعت قوى النضال حول القادة الأقيال ·· وبدأت مرحلة جديدة من مراحل النضال ·· فجاهد آباؤنا وأجدادنا الأقربون ·· الانجليز والأتراك معا ، وانتصروا عليهم جميعا ·

الوثبة الكبرى :

ان قوى الشر لتتنافس · ولكن الوعى القومى قد شب عن الطوق وبلغ أوج فتوته وصباه ·

الأتراك والانجليز والمماليك يتربصون ، ولكنهم لايحسبون للشعب حسابا ·· ذلك الشعب الذى أوهن ســـواعد الفرنسيين وجعلهم يتهافتون صرعى تحت الأقدام ·

فالدولة العثمانية ترنو الى ماضيها الاسود ·· وتســـعى الى استعادة سلطانها المفقود وجبروتها المنهار ·· والانجليز يريدون أن يبسطوا نفوذهم على وادى النيل ، وأن يرثوا حليفهم الذى تصـــدع كيانه وتداعى بنيانه ·

أما المماليـــك ، أولئك الذين استأثروا بخيرات مصر أجيـــالا وقرونا · واستلبوا ثروتها وابتزوا جهود أبنائها وخانوا شعبهـــا المناضل على عهد العدوان الفرنسي ـ هؤلاء المماليك ·· انهم ليترامون تحت أقدام الانجليز ، بعد أن مرغوا جباههم فى تراب الفرنسيين ·

وأما الشعب المجاهد فكان قد تمرس بالجهاد ، فاجتمعت كلمة المتفرقين ، وتوحدت صفوف المبعثرين ، وأصبحت القيادة الشـــعبية تملأ الأسماع فى طول البلاد وعرضها ·

ان فى كل قلب جرحا ، وفى كل نفس وخزا ، وفى كل بيت ضحية ؛ ولكل أسرة ثأرا ·· ولـــكن الأمة عرفت نفسها ، ولمست وجودها ، وأصغت بأسماعها الى نداء الحكمة ·

اجتمع فى القاهرة عمر مكرم ، ومحمد السادات ، وعبد الله الشرقاوى ومحمد الأمير · وسليمان الفيومى · ومصطفى الصـــاوى ومحمد المهدى · واحمد المحروقى · ممثلين لادارة الشعب مقررين لمشيئته · ·ممسكين بزمامه ·

واستقر الرأى على الاستعداد والترقب والتوثب ·· ليضرب الشعب ضربته السديدة وسط معترك القوى الدخيلة ·

وتتابعت الأحداث والقوة الشعبية صامتة ترقب صراع الدخلاء ·

عينت تركيا واليا لها على مصر ، وبدأ الأتراك يتآمرون على المماليك ، وبدأ الانجليز يبسطون حمايتهم على العبيد الأرقاء ·· وفى ظل هذه الحماية شرعت وفود المماليك ترتحل الى الصعيد استعدادا لمنازلة الأتراك ·

واستنجدت الدولة العثمانية بحليفها القديم ـ نابليون ـ فسحب الانجليز جيشهم الى الهند فى مايو سنة ١٨٠٢ ولم يبق لهم سوى قوة فى الاسكندرية ·

وخلا الميدان للأتراك فجرد واليهم «خسرو باشا» حملة لقتال المماليك فى الصعيد ·· وجمع المماليك كلمتهم وواجهوا الأتراك فى موقعة «هو» عند نجع حمادى ·· ثم فى معركة دمنهور ·

وأوفد نابليون رسولا الى مصر فى اكتوبر سنة ١٨٠٢ ليطالب القائد الانجليزى بالجلاء ، فتراخت اجراءات الجلاء ·· ثم رضخت بريطانيا أخيرا فجلت عن مصر فى ١٦ من مارس سنة ١٨٠٣ ولكن قواتها اصطحبت معها زعيم المماليك «محمد الألفى» لتنسج واياه خيوط مؤامرة تعيدها الى مصر ··

ولم تكد حماية الانجليز تنحسر عن المماليك حتى انسحبت جموعهم الى الصعيد ·· واستقروا فى المنيا ·

وقفة التاريخ :

ويتوقف التاريخ قليلا ليروى قصة جندى أمى من قولة، تسلل

فى ظلام المنافسة بين القوى الثلاث فلاذ بالقوة الكبرى ، قوة الشعب حتى قفز على أعناقها الى مقعد السلطة والجاه .

انه محمد على الذى قام مجده منذ صباه على الغدر والمخاتلة والذى اعتز تاريخه المجيد بحادثة «براوسطة» فراح يستمد منها معانى الشجاعة والاقدام .

وكانت تلك القرية قد امتنعت عن دفع الضرائب ، فعز على حاكم قولة اخضاعها وليست لديه قوة قادرة على ذلك .. وعندئذ تقدم الجندى الصغير محمد على – الذى نشأ فى بيت الحاكم بعد وفاة أبيه – وصحب عشرة من الجنود الى القرية العاصية . ولكنه لم يدخلها محاربا ، بل تسلل اليها كالغرباء أو السائحين المسالمين . ولاذ بمسجدها متظاهرا بالصلاة .

ومن بيت الله – موطن الأمن والسلام – بعث برسول الى أربعة من أعيان القرية يدعوهم الى المسجد ، فسارعوا للقاء الوافد الغريب. فانقض برجاله عليهم وكبلوهم بالحديد وهربوا بهم الى قولة .

وعندما سارع أهالى القرية لنجدة رءوسهم سدد محمد على ورجاله أسلحتهم الى الأعيان الأربعة ، وهددوا باطلاق النار عليهم، فكف الأهالى عن القتال . ودفعت القرية الضرائب فدية لأعيانها الأربعة .

وهكذا رقى محمد على الى رتبة بلوك باشى .

ثم ترك الجندية الى تجارة الدخان بعد أن تزوج باحدى الموسرات .

ولما شرع السلطان العثمانى يجهز جيشا لمحاربة الفرنسيين فى مصر ، ضمه حاكم قولة الى القوات النازحة .

ومنذ وطئت قدماه أرض مصر . راح يتابع طريقته فاحتل

قلعة الرحمانية بحفنة من الرجال .. ولكن بعد أن انسحب منهـا الفرنسيون ..

وهكذا حصل على رتبة عسكرية بعد رتبة ، حتى بلغ رتبـة اللواء .. ولم يكن ذلك غريبـا فى تلك الجيوش غير النظامية التى يجمعها السلطان جمع المتاع ، ويلقى بها فى جهات الارض . لتنتهب مايفى بأقوات أفرادها ورواتبهم .

ونعود الى الوالى التركى خسرو بعد جلاء الانجليز .. بعد هذه الوقفة القصيرة .

لقد دعا القوات التركية الى تجريد حملة لقتـال المماليك فى الصعيد ، فآثر محمد على السلامة ، وراح يؤلب الجنود الأرناؤود حتى تمردوا بدعوى المطالبة برواتبهم المتأخرة .. واشتدت الفتنة فانقلبت الى قتال فى ٣٠ من ابريل سنة ١٨٠٣ ثم آثر محمد على السلامة مرة أخرى ـ فى ميدان العصيان أيضا ـ فترك لزميله طاهر باشا فخر الانتصار بالجنود الأرناؤود على الوالى التركى .

وهرب خسرو الى دمياط ، فاختار المشايخ والعلمـاء قاهره طاهر باشا قائمقام فى ٦ من مايو سنة ١٨٠٣ .

وقبع محمد على فى ظلام الدس والتربص حتى ثار الانكشارية على طاهر باشا وقتلوه فى ٢٦ من مايو سنة ١٨٠٣ بعد عشرين يوما من ولايته ، وعينوا واليا منهم هو احمد باشا .

وبموت طاهر تولى محمد على قيادة الجنود الألبانيين ، فسارع يتحالف مع المماليك ليعزلوا الوالى الجديد .. وقد عزلوه فعلا بعد مضى ٢٤ ساعة من ولايته .. وأصبح كبيرهم ابراهيم بك صاحب السلطان ، فلاذ محمد على بكنفه .. ثم مضى فى ركاب البرديسى فى الحملة على دمياط والقبض على خسرو ، وعنـدئذ نادى ابراهيم بك بنفسه قائمقام .

وعينت الحكومة العثمانية واليا جديدا هو على الجزائرلى باشا الذى وصل الى الاسكندرية فى يوليه سنة ١٨٠٣ ، فواصل محمد على انضواءه تحت لواء البرديسى فى جيش المماليك لاسترداد رشيد من أيدى الأتراك ٠٠ وسلمت رشيد فى أغسطس سنة ١٨٠٣ ، وهم البرديسى بالزحف على الاسكندرية فانسلخ محمد على وجنـــوده عائدين الى القاهرة ٠

وسارع المماليك ـ بايعاز من محمـــد على ـ الى دعوة الوالى التركى الى العاصمة لتقلد الولاية ، والى اعتقاله فى الطريق وقتله فى يناير سنة ١٨٠٤ ٠

وعاد محمد الألفى من انجلترا فى ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٤ فاحتدمت المنافسة بينه وبين البرديسى ووقع الشقاق بين المماليك ٠ وتهيأ الجو ، فوثب الشعب وثبته الكبرى ٠

ثار فى وجه المماليك وكف طغيانهم بالسلاح ٠٠ وبدأ قادته يفرضون ارادته على تركيا بعد أن طردوا المماليك من القاهرة ٠

وعندما تخلت السلطة عن المماليك تخلى عنهم أيضا محمد على وتسلل فى جنح الظلام فتقرب الى العلماء والمشايخ وجاهر بانضمامه اليهم مع جنوده الأرناؤود ٠

وعينت الدولة العثمانية واليا جديدا هو خورشـــــيد باشا فوصل القاهرة فى مارس سنة ١٨٠٤ وهدته عبقريته الى محاولات مفضوحة للتخلص من محمد على فقربه بذلك من قلوب الوطنيين ٠

استصدر فرمانا عثمانيا بعودة الجنود الألبانيين الى بلادهم ، فوقف العلماء فى وجه الفرمان وأبقوا محمد على فى مصر ٠

وحاول ابعـــاده الى الصعيد على رأس جيش من الجيوش التى أوفدها لقتال المماليك فأكسبه فى نظر الشعب صفة الأبطال ومحا آثار جرائمه حين انحاز الى أعدائه من قبل ٠

وطلب من الآستانة قوات جديدة يستعيض بها عن محمد على وجنوده ، فأمدته بجيش من الأكراد كان أفراده أخس من جنود محمد على الأرناؤود ٠

وثار الشعب فى وجه خورشيد ، دفعا لظلمه وصحوا لسلطانه وكفا لخسة جنوده الأكراد ٠٠ وانتصر الشعب فى ٢٩ من مايو سنة ١٨٠٤ فسارع محمد على الى القاهرة ووصلها فى ١٩ من ابريل سنة ١٨٠٤ ٠

وقامت ثورة الشعب مرة أخرى فى أول مايو سنة ١٨٠٥ ٠٠ ثم طالب القادة فى ٩ من مايو بخروج الجنود الأكراد من مساكن الأهالى وحددوا مهلة لذلك ثلاثة أيام ٠

وانتهت المهلة فى ١١ من مايو ولم يجل الجنود الأكراد ، فاجتمع الزعماء فى ١٢ من مايو وقرروا اختصام الوالى فى مجلس الشرع ٠٠ وقدموا الى القاضى مطالبهم التى عرفت بوثيقة الحقوق الوطنية ٠

ورفض خورشيد المطالب الوطنية فاجتمع وكلاء الشعب فى ١٣ من مايو سنة ١٨٠٥ بدار المحكمة وقرروا عزله وتعيين محمد على واليا على مصر «بشروطهم ومشورتهم» ٠

ورفض خورشيد أن يخلع بأمر الفلاحين ٠

واستكان محمد على وانطوى خلف أستار التواضع ، ومنعه الجبن فلم يشترك فى الحرب التى شنها الوطنيون بقيادة عمر مكرم على خورشيد وجنوده ٠٠ وكذلك لم يشترك فيها جنوده الأرناؤود ٠ بل تخاذلوا عنها ولاذوا بالمعاذير ٠

واستمرت الحرب قائمة حتى أذعنت السلطنة العثمانية فى أوائل يوليه سنة ١٨٠٥ لمشيئة الشعب فورد فرمانها — فى ٩ من يوليه — بتثبيت محمد على واليا على مصر «حيث رضى بذلك العلماء والرعية» ٠

وسلمت القلعة في ٥ من أغسطس سنة ١٨٠٥ ، وهرب جنود خورشيد الى الجيزة • وانتصر الشعب بعد طول جهاد ، ولكنه أجلس على عرشه ذلك الأفاق المغامر الذى استحل الغنيمة وقد جبن عن طلابها والذى تنكر للشعب وقادته ، وعض أكف الاحسان التى بسطت اليه •

فى وجه الانجليز :

ان الجو لم يخل بعد من عوامل التحفز وبواعث الجهاد •

فالسلطنة العثمانية التى خضعت كارهة لارادة الشعب تتحين الفرص ، ثم ترسل عمارة بحرية الى الاسكندرية تصل أبو قير فى ١٧ من يوليه سنة ١٨٠٥ بقيادة قبطان باشا ، ليفرض مشيئتها ان استطاع •

والسياسة الانجليزية تؤيد صنيعتها محمد الألفى وتمد له حبال الرجاء وتسعى للمحالفة بين الأتراك والمماليك ضد ارادةالشعب عسى أن تنكسر شوكته فتفترسه مقصوص الجناح •

ومحمد على يلوذ بقادة الشعب ، ويحرق ـ فى الوقت نفسه ـ بخور الملق والرياء للباب العالى •

وتتكشف قوة الشعب لعينى قبطان باشا فينقلب الى الاستانة فى اكتوبر سنة ١٨٠٥ •• ويلتزم محمد على حدوده التى أعلنها الزعماء حين وضعوه فى منصب الولاية ، فيرجع اليهم فى فرض الضرائب ، ويمس فى صدورهم أوتار الوطنية فيدعوهم للاكتتاب فى رواتب الجند المتأخرة كى يرسلهم الى بلادهم ويخلص مصر من شرورهم ، فيبذلون له بذل السخاء ، ولكنه لايخلصهم من جنوده الأشرار •

وتأكدت مكانة الزعماء فأصبحوا ملجأ الشعب وملاذه ••

واستطاعوا أن يخففوا الضرائب ويدفعوا المظالم ٠٠ وكان كبيرهم عمر مكرم قد رفض ولاية المناصب وبقى يمثل ارادة الشعب فى رقابته على محمد على وتصرفاته ٠

وقامت الحرب بين المماليك ومحمد على فى سنة ١٨٠٦ وظلت سجالا ، فناصرت الدولة العثمانية أولئك المماليك اذ أصدرت فرمانا بتولية موسى باشا على مصر ومحمد على على سلانيك والعفو عن المماليك ، ووصلت عمارة تركية الى الاسكندرية فى أول يوليه سنة ١٨٠٦ لتراقب تنفيذ ذلك الفرمان ٠

وتظاهر محمد على - على طريقته - بالامتثال لمشيئة السلطان ولكنه تباطأ مطالبا بالرواتب المتأخرة للجنود ٠٠ ثم لجأ الى عمر مكرم والزعماء الوطنيين ٠

واجتمع المشايخ والعلماء وقرروا الاعتراض لدى الباب العالى٠ ولم تفلح معهم محاولات قبطان باشا ممثل ادارة السلطان فاعتمد على المماليك ٠

وقامت الحرب بين الجانبين ٠

وفى هذه المرة حارب محمد على فى جانب الشعب دفاعا عن سلطته ٠٠ ولكن محمد الألفى هزمه فى واقعة النجيلة فى ١٢ من أغسطس سنة ١٨٠٦ ٠

أما قوات المقاومة الشعبية ٠٠ أما الجيش الوطنى والقيادة الوطنية ، فقد عزت على المماليك والعثمانيين وانتصرت عليهما معا ٠

حاصر محمد الألفى دمنهور ، فاستبسلت قواتها الشعبية فى الدفاع حتى جاءها المدد من عمر مكرم ٠٠ فارتد عنها الألفى ومماليكه خائبين ٠٠ وأدركت السلطنة ان ارادة الشعب أقوى من ارادتها ، فبعثت بفرمان تثبت به محمد على فى ولاية مصر ، بناء على رغبة الشعب ، وأقلعت العمارة التركية فى ١٨ من اكتوبر سنة ١٨٠٦ ٠

ومات البرديسى فى ١٩ من نوفمبر فخلا الجو لمحمد الألفى صنيعة الانجليز ٠٠ وبدأت مرحلة التنفيذ لتلك المؤامرة التى أعدها الانجليز وصنيعتهم فى لندن ٠

كان المملوك الخائن يترقب قوات الغزو الانجليزية ليذلل لها طريق الاستعمار ، وكان يرابط بجنوده فى شمال البحيرة على مقربة من الاسكندرية ٠ فلما طال به الانتظار ، واستعصت عليه المدائن والقرى ، وأوشكت أن تقوم فتنة بين جنوده ، فقد الأمل فى سادته الانجليز وانقلب بجيوشه الى الصعيد ٠٠ ثم أدركته الوفاة فى شبرامنت فى ٢٨ من يناير ١٨٠٧ ٠

عندئذ زحف محمد على بجنوده الى الصعيد فهزم المماليك فى أسيوط ٠

وجاءت الحملة الانجليزية فى ١٤ من مارس سنة ١٨٠٧ ٠٠ وفى ١٦ من مارس احتلت القوات الانجليزية مدينة الاسكندرية دون مقاومة ، مقابل رشوة قدمتها لمحافظها التركى أمين أغا ٠

وفى ١٧ من مارس وصلت بقية الحملة ونزل جنودها الى أرض مصر ، وتقدمت قواتها الى داخل البلاد معتمدة على محالفة المماليك ولكن المماليك كانوا فى الصعيد ، وكذلك كان محمد على وجنوده فخلا الميدان الا من قوات المقاومة الوطنية ٠

وفى ٣١ من مارس وصل الانجليز الى رشيد فهزمهم جيش الشعب شر هزيمة ٠

وتمكنت من الشعب نوازع الثقة بعد تلك الموقعة ، ومنى المماليك بصدمة أقعدتهم عن الحراك ٠

ودعا داعى الجهاد ، فى وجه العدوان الانجليزى ، ونظم التطوع والاكتتاب وتآلفت القوى واكتملت العدة ٠٠ وكانت القيادة الوطنية عالية المكانة ، مسموعة الكلمة ٠

وسرعان مامنى الانجليز بهزيمة أخرى منكرة بأيدى الوطنيين في واقعة الحماد فى ٢٠ و ٢١ من ابريل سنة ١٨٠٧ ·

وكان محمد على قد سارع الى العودة الى القاهرة ليستلب بعض الأمجاد ، وبعث بعض رجاله الى البحيرة فوصلوا الحماد بعد انتصار الوطنيين ، ولكنهم عنوا بأن يسوقوا أسرى الانجليز الى القـــاهرة ليتلقوا مكافأة سيدهم ، وليسيروا فى مواكب المنتصرين ·

وامتنع القائد الانجليزى وقواته بالاسكندرية يرتقب معونة المماليك ·· فلما تقطعت به الأسباب بعث الى محمد على يطلب الصلح على الجلاء ·· فسار محمد على الى دمنهور حيث التقى برسول الانجليز للمفاوضة ·· وعقد معاهدة الصلح والجلاء فى ١٣ من سبتمبر سنة ١٨٠٧ وسارع الانجليز الى عرض البحر فى ١٩ من سبتمبر ·

ولقـــد كان الشعب المصرى صاحب الجهـــد الأول فى طرد الفرنسيين ·· ثم انتصر على تركيا وأخضعها لارادته ·· وهو اليوم ينتصر على الانجليز ويطردهم من أراضيه ·· وتتهيأ له كل مقومات الاستقلال ، بعد هذه الحلقة الجاهدة من حلقات نضاله ·

ولكنه ــ وياللأسف ــ كان قد ألقى مقاليد أموره الى « دخيل » وكان قادته قد عفوا عن ولاية المناصب الدنيوية ، وركنوا الى ذلك الوافد المخاتل الغادر ·

الحلقة الثانية

عبقرية شريرة

طاغية جديد

كان الشعب المناضل قد فقد قرابة نصف مليون من أبنائه ٠٠ من أولئك الملايين الثلاثة الذين بدءوا نضـــالهم منذ عشر سنوات عندما غاد محمد على بجنوده الأشرار الى القاهرة فى اكتوبر سـنة ١٨٠٧ ٠ ٠وقد أعفته المقاومة الشعبية من نضال الانجليز ٠ كفت عدوانهم بأيديها ودمائها ٠

وكان الشعب قد طهر أرضه الطيبـة من الفرنسيين والأتراك والانجليز ، وكسر شوكة المماليك ٠٠ ولكن هذه الارض الطيبة لم تطهر بعد ٠٠ فقـد أصبح جنود محمد على آفة على الأمن والنظام ، أولئك المرتزقة الذين استناموا مع قائدهم حين بذل الشعب أرواح بنيه ٠٠ ثم انقلبوا يتهددون الناس فى أموالهم وأمنهم ٠٠ ويتهددون قائدهم الذى نبت من صفوفهم ٠

وقامت فتنة الجند فى ٢٨ من اكتوبر حين أطلقوا النار على سراى الأزبكية ، مقام محمد على فى ذلك الحين ٠

وفى ٢٩ من اكتوبر تسلل محمد على فى جنح الظلام الى قلعة صلاح الدين يتحصن بأسوارها من بطش زملائه الأشرار ٠

واكتتب الأهلون فى رواتب الجنود ٠٠ فهدأت الفتنة واستعاد محمد على سلطته واسترد أنفاسه ٠٠ ولكن الأرض الطيبة لم تتطهر بعد ٠٠ فقد انقلب الجندى الأمى الغادر المخاتل حربا على الشعب الذى ولاه ٠

وكان أول أسلحة سموم التفرقة والوقيعة بين القادة الوطنيين وإثارة المنافسة بين المشايخ على عرض زائل ·· فقد تملق بعضهم وآثرهم بمنافع الحياة الدنيا وشغلهم بنعيمها ·· فابتعـدوا عن الشعب المجاهد ·· أما الباقون منهم على الزهد والكرامة فقد رفض لهم كل رأى ·· وضرب باعتراضاتهم على مظالمه عرض الأفق ·

ومضت سنة ١٨٠٨ ·

وفى سنة ١٨٠٩ زاد أعباء الضرائب ، وهى ثقيلة ، فشـكت جماهير الشعب الى العلماء والمشايخ ·· وفى ٣٠ من يونيه من ذلك العام عقد السيد عمر مكرم اجتماعا وطنيا حضره العلماء والمشايخ · وكتبوا عريضة استنكار وقرروا مقاطعة محمد على مقاطعة اجماعية ·

وسلك محمد على كل سبيل ليجتمع بعمر مكرم ·· فرفض عمر مكرم وتوعده بأن يجمع كلمة الشعب لينزله عن كرسيه الذى أجلسه عليه ·

ومضى محمد على فى وسائله الخسيسة ·· يداهن ويرشو ·· ويستميل ·· ويعقد الاجتماعات والمؤامرات تحت أستار الظلام ·· ولكن عمر مكرم ظل على صلابته وتمسكه بمطالب الشعب ·

ثم خطا الزعيم الوطنى خطوة ايجابية فرفض الموافقة عـلى حساب ماأنفقه محمد على ، وأبدى شكه فى بعض بنود هذه النفقات وأفصح عن وجود اختلاس وتزييف فى ذلك الحساب ·

وبعد أن نبتت بذور الفتنة التى نثرها محمد على ، وأحكمت حلقات الخديعة ، ومالت بعض النفوس الضعيفة تحت سلطان البذل والاغراء ·· وتمرغت بعض الكرامات فى النعيـم المادى القـاتل للكرامات ·· لجأ محمد على الى الاحتكام الى القاضى والمشـايخ ··

فرفض عمر مكرم أن يحتكم على حقوق الشعب ، وأن يكون حكامه من هؤلاء الناكصين المرتدين ·

ولكن المسرحية مثلت فى ٩ من أغسطس سنة ١٨٠٩ فى غيبة عمر مكرم ، وتقرر فيها عزل القائد الوطنى المناضل من نقابة الاشراف ونفيه من القاهرة ·

ونفى عمر مكرم الى دمياط ·

وعندما انتصر له ولحقوق الشعب الشيخ الطهطاوى عزل من منصبه ·

أما الشعب فقد تملكه اليأس حين تفرقت كلمة الزعماء ، والشعوب تهن عزيمتها بمعاول الدس والوقيعة أكثر مما تهن بأى سلاح بتار ·

وانفرد محمد على بالحكم بعد أن أفلحت عبقريته الغادرة الشريرة فى شق الكتلة المتماسكة ·· كتلة المشايخ والعلماء ، الممثلة لارادة الشعب وكلمته ·

صراع اللصوص :

لقد أمضى محمد على قرابة خمس سنوات فى منصب الولاية ، وكانت مدتها من قبل سنة واحدة لم تكتمل الا قليلا ، ولم تتكرر الا أقل من القليل ·· وكان سنده فى البقاء قوة الشعب ومشيئته وقيادته ، فلما تمكن من كرسيه بدأ يناصب الشعب العداء ، وينكر مشيئته ، ويبعد قيادته ·· ثم بدأ يعمل على التخلص من المماليك فى الصعيد ، فصالحهم فى نوفمبر سنة ١٨٠٩ على الاقامة فى القاهرة ·

ومضى عام ١٨١٠ ·

وفى أول مارس ١٨١١ بلغ محمد على حضيض الغدر والخيانة :

وان يكن قد خلص البلاد من سادتها العبيد ، فكانت مذبحة القلعة٠ التي شاركه في وزرها حسن باشا قائد جنود الأرناؤود ومحمد لاظوغلى الخازندار ، وصالح كوش أحد الضباط ، وابراهيم أغا حارس باب القلعة ٠

لقد خلصه الشعب من نفوذ تركيا ، ومن عدوان الانجليز ، ثم خلصه غدره من القيادة الشعبية ، ومن المماليك ٠٠ وبقى عليه أن يتخلص من جنود الأرناؤود ليستقيم له الأمر٠ ولكنه شاء أن يتخلص منهم ومن روح النضال فى الشعب نفسه ٠٠ مرة واحدة ٠

وبحجر واحد صاد العصفورين الباقيين ٠٠

راح يسوق المصريين ، وبقية جنود الأرناؤود ، الى حروب عدوانية طائشة ضالة ٠٠ فساقهم الى الحرب الوهابية ، وألقى بهم فى جزيرة العرب ، بدعوى الاستجابة لنداء تركيا التى نفضنا عنا سلطانها منذ حين ٠

واستمرت هذه الحروب القاسية المجرمة من سنة ١٨١١ الى سنة ١٨١٩ ، وبلغت خسائر المصريين فيها ـ برغم النصر الذى لاقيمة له ولا غاية ـ ثمانية آلاف قتيل ٠

وساقهم الى فتح سيوه سنة ١٨٢٠ وهى من أرض مصر ، ليضمها الى رقعة نفوذه وطغيانه ٠

وساقهم الى السودان في سنة ١٨٢٠ أيضا ، ليستلب أرض الجنوب كما استلب أرض الشمال ، وليبحث له أبناء مصر عن مناجم الذهب والماس ؛ وعن مخابىء المماليك اللاجئين الى السودان ٠٠ وليجند السودانيين الأشداء ليحلهم محل الأرناؤود ٠

وساقهم الى حرب اليونان ، استجابة لدعوة السلطان محمود لاخماد الثورة اليونانية ٠٠ فجرد حملات الى كريت ، والمورة ، وشواطىء الأناضول ٠٠ وظل يلقى اليها بالوقود المصرى من سنة

١٨٢١ الى ١٨٢٨ فواجه معركة نفارين وهزمت تركيا وفقدت مصر أسطولها ٠٠ وعاد الجيش المصرى من اليونان ١٢ ألفا وقد ذهب اليها ٤٢ ألفا ٠

وساقهم الى سورية ليرث فيها سلطانه المهزوم ، وبدأت الحملة المصرية فى اكتوبر سنة ١٨٣١ وانتهت بانتصار المصريين على الاتراك فى يوليه سنة ١٨٣٢ ٠

ثم ساقهم الى الأناضول فانتصروا فى واقعة قونيه فى ٢١ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ ٠٠ وعقدت اتفاقية كوتاهيـــه فى مايو سنة ١٨٣٣ وتخلى السلطان عن عرش سورية واقليم أدنة ، مع تثبيت محمد على على مصر وكريت والحجاز ٠٠ وذلك كله مقابل جـــلاء المصريين عن الأناضول ٠

هل كسب محمد على لمصر شيئا من ورا هذه الحروب ؟ اللهم ان مصر هى التى كسبت له عروشا لم يستطع أن يستبقيها ٠

فقد ثارت سورية فى وجهه ، وحاولت تركيا أن تستعيدها ، فقامت الحرب السورية مرة أخرى فى ٢٤ من يوليو ســنة ١٨٣٩ فانتصر المصريون ولكنهم فقدوا أربعة آلاف قتيل وجريح ٠

وتوفى السلطان محمود فى يوليه سنة ١٨٣٩ فتقدم ابراهيم ابن محمد على لينتهب لأبيه عرش السلطنة ٠٠ وتم تسليم الاسطول التركى فعلا ٠٠ فهبت الدول الأوروبية فى وجه الزحف العـــلوى وعقدت معاهدة لندرة فى ١٥ من يوليه سنة ١٨٤٠ وهى التى تخول محمد على حكم مصر وجنوب سورية مدى حيــاته ، وتعترف لخلفائه من بعده بولاية مصر من قبل السلطان مقابل جزية سنوية٠٠ وتقرر اخــلاء كريت وبلاد العــرب واقليم أدنة واعادة الأســطول التركى للسلطان ٠

ورفض محمد على أن ينحسر سلطانه ، فهبت الدول المتحالفة

لحربه في أغسطس سنة ١٨٤٠ واستمرت ثورة سورية على حكمه ٠٠

وأخيرا أخلى سورية ٠٠ وجزيرة العرب وقنع بولاية مصر مدى حياته وتوارث هذه الولاية في سلالته ٠

خديعة التاريخ :

لقد قامت حياة محمد على على الخيانة والغدر ، ثم امتـــدت خديعته الى التاريخ فسجل كل هذه الوقائع التى سردناها ، ولكن المؤرخين حملوها مالاتطيق ٠

ارجعوا النصر الذى أحرزته صلابة المقاتلين المصريين وحنكتهم وشجاعتهم الى عبقرية محمد على ، ذلك الذى وفد على مصر جنديا مرتزقا فتعلم من الشعب المصرى معانى الشجاعة والاقدام ٠٠ تعلم المعانى ولم يتعلم الافعال ٠

وكان على محمد على لكى يعيش أن يكف عن رأســـه سيوف الأرناؤود من جنوده ٠٠ فكون جيشا من المصريين ٠

وكان عاجزا عن مواجهة القوة الشعبية الغلابة ، فراح يبعثرها ويبددها فى ميادين الشرق والغرب والشمال والجنوب ٠

عندئذ سجل المخدوعون مرة أخرى فصولا طوالا عن فتوحاته ونسوا أنها فتوح عدوانية آثمة ملتاثة ٠٠ وأن الشعب الذى نهض بها كان أولى بدماء أبنائه ، وأرواح شهدائه ، بعد أن خرج من معركة الاستقلال التى امتدت عشر سنوات طوالا ٠

وكان حتما على محمد على ، لكى يكون جيشا وأسطولا ، أن ينشىء المدارس الحربية ، والمصانع والترسانة ٠٠ وأن يوفدالبعثات البحرية ٠

ولكن خديعة التاريخ بلغت حدا مروعا ، حين زعم الزاعمون

حتى من الكتاب الوطنيين ، ان محمد على وضع حجر الأساس فى استقلال مصر .

ان دماء المصريين المسفوكة طوال عشر سنوات هى التى صنعت استقلال مصر ، وقد أجلسوا فى مقعد الولاية ذلك الآفاق ، بعد أن أقاموا دعائم الاستقلال ، بفرض ارادتهم على العثمانيين ؛ ثم طهروا له الأرض من العدوان الانجليزى .. فاذا به يعود من أحلامه العدوانية واليا عثمانيا ملتزما بجزية سنوية للسلطنة العثمانية .

فلعل المخدوعين يقصدون أن محمد على «قد استقل» بمصر وجعلها ضيعة يملكها ويورثها ابناءه من بعده .

والمؤرخون المخدوعون لم يستطيعوا أن يبرروا طريقة محمد على فى حكم مصر .. ولا أن يلبسوها ثيابا تدارى سوءاتها .

استأثر محمد على بأراضى مصر قاطبة ، وأخذ أملاك المماليك وألغى نظام الالتزام ، وأضاف ذلك كله الى ملكيته الخاصة .. ثم أقطع بعض الأعيان ورجال الدولة والجيش والموظفين أراضى بورا لاصلاحها وزراعتها وهى «الأبعاديات» التى كانت فى ذلك الحين «مبعدة» من الزمام .. كما أقطع أفراد أسرته وحاشيته «شفالك» أوسع فى مساحاتها من تلك الابعاديات .

وهكذا أعاد محمد على مسبة الاقطاع فى صورة أبشع مما كانت فى عهد الظلام .

وألغى محمد على «الالتزام» ولكنه اصطنع بديلا له هو نظام «العهد» الذى جعل فى عهدة المأمورين والاعيان ورجال الجهادية تحصيل الاموال .

ولم يقنع بامتلاك الارض فامتلك من عليها ... وفرض ضريبة الرءوس على كل ذكر بلغ سن الثانية عشرة ..

واحتكر الحاصلات الزراعية والاتجار فيها ..

واحتكر الصناعة ..

وأقام طبقة « ارستقراطية » حاكمة من أفراد أسرته وبنى جنسه ، واغتصب السيادة ليخلعها على العصر الدخيل ..

ذروة العبقرية :

ولا ينكر أحد أن «محمد على» نهض بالتعليم ، وأوفد البعوث وعنى بأعمال الرى والزراعة وأنشأ الترع وقناطر ضبط النيل وأدخل زراعة القطن وأقام دعائم الصناعة ..

ولكنه لم يكن عبقريا كما وصفه المخدوعون والمخادعون . ولا كان وفيا للشعب الذى ولاه زمامه بارادته ومشيئته . بل كان صاحب ضيعة خصبةذات موارد طبيعية موفورة وقوى انسانيةقادرة فأحسن استغلال ضيعته .. بل « أحسن » ابتزاز مواردها وحيوية أبنائها ..

وانما اقتصرت عبقرية محمد على على الشر والجريمة ... فكان عبقرى الغدر ..

كذلك كان عبقريا لانه مات مجنونا ..

وكل مجنون من الفقاعات التى طفت على وجه الزمان وتلقفها التاريخ فى انتفاخها الاجوف ـ لا بد أن يكون عبقريا .

وقد بلغ محمد على ذروة العبقرية فى شهر ابريل سنة ١٨٤٨ حين أصابه الجنون الصريح ولم يفلح فى شفائه دواء .. فعقد مجلس خاص برياسة ابنه ابراهيم .. وأبلغ الامر الى الباب العالى فبعث بفرمان الولاية لابراهيم .. الذى شككت المراجع التاريخية فىصحة نسبه الى محمد على ، وقالت انه ابن زوجته من زوج سابق .

وطويت صفحة محمد على وهو لم يزل بعد على قيد الحيـاة • ولكن بعد أن توطن الداء الوافد وتكاثرت حويصلات جرثومته ••

وخضع الشعب للعنت والارهاق والظلم والبغى ••• لانه هو الذى صنع الطاغية المعربد •• وقد كان له العذر ••

نعم •• فقد كان محمد على ـ عنـدما بلغت اليقظة الوطنيـة منتهاها على عهد عمر مكرم ـ يعـانى مركب نقص شـديد •• أخذ يتضاعف ويستفحل على مدى السنين حتى أفضى به الى الجنون ••

كان وليد المحسوبية والزلفى فانحاز الى طلاب العدالة وأنصار الحق •• ولبس مسوح العدول الشرفاء ••

وكان جنديا غير نظامى ممن يجمعون كالمتاع وأصبح لواء •• فانفعل فى باطن نفسه الى حاكم بأمره ••

وكان ربيب بيت غير بيت أبيه •• فتطور فى باطن نفسه الى سيد •• بل الى مالك للارض وما عليها ومن عليها ••

وكان جبـانا فانتهب شـجاعة الشـجعان وبطولة الابطال من المقاتلين المصريين •••

وكان ثمرة كفاح الشـعب ووليد ارادته ••• فصنع لنفسه ارادة ، وأصبح مثلا زريا للاستبداد والكبرياء••• وقد أنشأ مجلسا للمشورة لم يجعل له سلطانا فى أى شأن من الشئون •••

وكان نكرة فكون بيتا ارستقراطيا ••

وكان مجنونا فاستعبد جموع العقلاء ••

عدو جديد :

لقد كان هـذا الشـعب المنـاضل ـ منذ تخلص من أعدائه ـ جديرا بأن يتابع وثبته•• •وأن يرقى فى مدارج الكرامة والاستقلال

الى الذروة ··· وأن يفيد من هذه الجهود المبعثرة والدماء المبذولة·· ولكن عدوا جديدا واجهه ··· ممثلا فى محمد على وسلالته ··

على أن جذوته لم تنطفىء··· بل أن مظالم هذا البيت الدخيل قد نفضت عنها التراب ، فعادت الى توهجها بعد حين ··· وعندئذ كان العدو الجديد قد سارع يترامى تحت أقدام المستعمرين ··

تولى ابراهيم حكم مصر فى شـــهر ابريل سنة ١٨٤٨ ومات فى ١٠ من نوفمبر سنة ١٨٤٨ فحسبت فترة ولايته بالشهور ··· ولذلك تلفت التاريخ العقيم الى الوراء ، ليتعقبه فى ميادين الحرب على عهد أبيه، وليسلكه فى عداد الابطال ··· وليكتب بدماءالشهداء المصريين صفحات صارخة تحمل اسمه العريض ··

وتولى بعد ابراهيمعباس الاول ··· فى حياة جده المجنون ·· فأصيبت البلاد على يديه الآثمتين بنكسة أعادت الى الاذهان ذكرى عهود الظلام التركى ···

كان يعانى شذوذا فأحاط نفسه بالغلمان والفتية من الاتراك والمماليك ·· واعتزل واياهم خلفجدران قصوره القصية التى أوغل بها فى أعماق الصحراء ··

وكان مثلوم الخلق فاشتدت ضغينتــه على النــاس كافة ·· وأساء الظن بهم ·· وركبته الوساوس والهواجس ·· فأكثر النفى الى السودان الجنوبى ، ومصادرة الأملاك .. والبطش والفتــك والعدوان ··

وكان مظلم النفس والعقــل فأقصى الخبراء الاجانب ، وألغى المدارس العالية والثانوية والابتدائية وأغلق أبوابهــــا ونفى الى السودان علماء مصر كرفاعة رافع ومحمد بيومى ··· وألغى البعثات واستدعى اعضاءها ··

وخضع للتدخل الاجنبى ·· فأنشأ بمشورة الانجليز السكة الحديدية بين الاسكندرية والقاهرة ·· ليسلك الانجليز سبيلهم الى الهند من طريق مصر ··· وليبهر السلطان عبد العزيز فى زيارته لمصر ··· فلم يكن قد رأى فى حياته قطارا بخاريا ··

وأهمل شأن الجيش ، ثم أدمج فيه ستة آلاف جندى أرناؤودى جعلهم خاصة جنوده حتى أصبحت لهم الصولة والنفوذ ، وشمخوا بأنوفهم على المصريين شعبا وجندا ···

وأهمل البحرية ، وعطل الترسانة ، ومع ذلك ساق الجيش والاسطول كليهما الى حرب القرم فى سنتى ١٨٥٣ و ١٨٥٤ ··

وظل فى سبيله المعوج وسيرته المشوبة ، حتى كسب كراهية الشعب كله ، وكراهية البيت الذى أنبته أسوأ نبات ··

وأخيرا قتله فتيانه فى قصره ببنها فى ليلة ١٤ من يولية سنة ١٨٥٤ ·

تحول موقوت :

وتولى بعد عباس الاول عمه سعيد ·· وكان قد نال حظه من ظلم ابن أخيه وبغيه فاقترب من الشعب ، ولذلك بدأ عهده ساعيا الى الاصلاح ، مناهضا للظلم والارهاق ·· فوضع اللائحة السعيدية التى خولت الفلاحين حق الملكية العقارية للاراضى الزراعية لاول مرة منذ عهد محمد على ·· وألغى احتكار الحاصلات الزراعية وخفف من أعباء الضرائب وسمح للزراع بأن يوفوا ضرائبهم نقدا بعد أن كانت تنهب منهم حاصلاتهم ، وأعفى الزراع من المتأخرات القديمة.

وهكذا فترت روح العداء بين الشعب وحاكمه ··· وانتفت أسباب الوثبة الشعبية التى كانت منتظرة بعد سنوات من جنون محمد على وظلم عباس الاول ··· وأصاب المجاهدين خدر موقوت ،

وخاصة حين عاد سعيد بالجيش الى صبغته الوطنية ، وشرع التجنيد الاجبارى للجميع ، وأفسح للضباط المصريين سبيل الترقى الى الرتب العالية التى كانت وقفا على الترك والجراكسة ··

لوثة الدم :

ولكن الدم الدخيل الذى جرى فى عروقه متحدرا من المنبع الملتاث لم يفتأ حتى باعد بينه وبين الامة التى انحدر ابناؤها من منابع طهرتها الأحداث ··

فقد ركن الى الاوروبيين ··· وأصغى للافاقين منهم ··· واستدان من البيوت الاجنبية ليغطى نزوات اسرافه وبذخه ·· حتى مكنهم من مرافق البلاد ·· بل ومن سلطة الدولة وسيادتها ·

وأفسح صدره للشركات الاجنبية ، فانشئت شركة أجنبية للملاحة النيلية ··· وشركة مختلطة للملاحة البحرية ··

وقد أرسل المدد للجيش المصرى الذى أقحمه سلفه فى حرب المورة ·· والذى راح يعانى الشدائد فى شتاء ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ حتى استشهد الكثيرون من رجاله ··· وعلى رأسهم قائده العام سليم فتحى ·· كما غرق قائد الاسطول حسن باشا الاسكندرانى ··

ثم القى سعيد بقوة من الجيش المصرى ـ بقيادة البكباشى جبرة الله محمد السودانى ـ فى حرب المكسيك فى أقاصى الدنيا الجديدة ـ مجاملة وزلفى لصديقه نابليون الثالث ·· فى حربه العدوانية العقيمة ··

وأهمل سعيد شئون التعليم·· فاستمر الشلل الذى أصابهما فى عهد عباس الاول ، وزاد سعيد أن الغى ديوان المدارس (وزارة المعارف) ومدرسة المهندسخانة والمدرسة الثانوية العسكرية ـ التى أنشأها عباس الاول ـ وأنشأ بدلا منها مدرسة حربية ، ثم

عاد فافتتح المهندسخانة وجعلها مدرسة حربية وأغلق مدرسة الطب ثم أعاد فتحها ..

ومع ذلك فقد ساعد البعثات الدينية الأجنبية ، كالبون باستور وراهبات الصدقة والبعثة الامريكية والمدرسة الايطالية ..

وكان سعيد ، برغم بدايته الطيبة ، وبرغم تهالكه وخوره وتردده ، حاكما مطلقا يجمع فى يديه كافة السلطات فى الدولة .. التنفيذية والتشريعية والقضائية .. منكرا لسيادة الشعب ، كافرا بحقوقه . وهو الذى بدأ حكمه متمشدقا بالعبارات الرنانة الجوفاء ..

ثم اختتم عهده بجريمة قناة السويس ، انصياعا لمصالح التجارة الدولية ، والاستعمار الاوروبى .. بل لمصلحة المسيو دبليسبس .. وهو يعلم أنها « البسفوز الثانى » الذى يعرض مصر واستقلالها للخطر .. وأسرف فى منح الامتيازات لشركة القناة ، حتى قدر المؤرخون الاوروبيون أنه ترك أمر تحرير العقد لصديقه ديليسبس ممثل الشركة وداعيتها ..

وسخر الفلاحين والجنود لحفر القناة .. كى تتحول التجارة الدولية من داخلية البلاد الى ذلك المجرى المائى الذى تنفرد بأرباح استغلاله شركة أجنبية .

وكان سعيد كذلك رائدا فى عقد القروض الاجنبية، التى جرت على البلاد على يدى خليفته أفدح الويلات .. فعقد أول قرض بقيمة اسمية مقداره ثلاثة ملايين ومائتان وخمسون ألف جنيه .. ولكن قيمته الفعلية اقتصرت على مليونين وأربعمائة ألف جنيه فى حين بلغ مجموع الاقساط والفوائد ثمانية ملايين من الجنيهات ..

ثم ساقه اسرافه وبذخه الى ابتداع طريقة الصكوك على الخزانة .. وانطلق يستدين من المرابين كيف يشاء ، مقابل صكوك

على الخزانة .. بلغت فى عهده ثمانية ملايين من الجنيهات وسميت فيما بعد « الديون السائرة » ..

وأضاف سعيد الى مغبة الديون الاجنبية مغبة الملاينة والاستخذاء للنفوذ الاوروبى حتى استفحل خطر الامتيازات الاجنبية على يديه ، فأصبح للقناصل نفوذ لم يكن لهم ولا لدولهم من قبل ، واتخذت الامتيازات الاجنبية صفة الحقوق ، وكانت من قبل منحة من السلطنة العثمانية . وفى نطاق محدود لا تتعداه ...

ثم مات سعيد فى ١٨ من يناير سنة ١٨٦٣ ، فطويت صفحة واحد من سلالة محمد على انحاز يوما الى صفوف الشعب ثم عاد الى مكانه الطبيعى سريعا ... فالتأم ـ فى عهده ـ جمع الاسرة الغاشمة بعد تشتت ... واستعادت الطبقة الارستقراطية الحاكمة كيانها المتصدع ... وهى طبقة كانت تتحدث بالتركية ، وتتعلم اللغات الاجنبية ، وتترفع على الشعب ولغته ، ويعيش أفرادها بمعزل عن الحياة العامة ... بل يؤثرون المعيشة فى الخارج عالة على الشعب وجهده ...

والى جانب الطبقة الحاكمة المترفة العاطلة... وجدت الجاليات الاجنبية التى استمدت عزتها من ضعف سعيد وتهاونه واستخذائه. ووجدت المصالح الاجنبية التى قامت على الانتهاب الجشع .. مستغلة جهل الحاكمين .. الذين استسلموا للمتع ، وبهرهم بريق المدنية الاوروبية ... وزيفها ... وخدرتهم قشورها المسمومة ..

الغشاوة تتبدد :

لقد كان عهد سعيد خدعة من الاقدار لهذا الشعب المناضل.. بل كان فجرا كاذبا لم يلبث أن تكاثف الظلام بعده فى عهد اسماعيل ..

كان اسماعيل أجنبيا دخيلا، انحدر من صلب أجنبي دخيل ·· ثم نشأ في باريس فبهرته مباذلها ومظاهر فجورها وبريق متاعها المبذول ·· ولم يبهره علمها أو فنها أو جهدها الدائب ونشاطها الموصول ·· لانه لم يتعلم طوال مقامه فيهـا سوى لغة المتبطلين المترفين من أبنائها ·· والمترديات المتهالكات من بناتها ··

وآلت الضيعة الى ذلك المسرف الشره المفتون ·· فسعى منذ البداية لكي ينفصل بها عن الشرق ، ليلقى بها وبنفسه تحت أقدام الاوروبيين ··

وكان سبيله الى غايته هـذه ، هو الرشـوة ، والبـذخ ·· والتظاهر الكاذب المقيت ·· وهكذا تردى في جريمة القروض ··

فقد تولى حكم مصر في أوائل سنة ١٨٦٣ فلم يلبث حتى عقد أول قروضـه في سـنة ١٨٦٤ ، وهـو قـرض قيمتـه الاسـمية ٥٫٧٠٤٫٢٠٠ جنيه ، بفائدة ٧ ٪ لمدة ١٥ سـنة ·· ولـكن سعر الفائدة الحقيقي بلغ ١٢ ٪ وقد رهن في مقـابل ذلك القرض الاول ضرائب مديريات الدقهلية والشرقية والبحيرة ··

وفي العام التالي (١٨٦٥) عقد ثاني قروضه بقيمـة اسمية قدرها ٣٫٣٨٧٫٣٠٠ جنيه لم يقبض منهـا سوى ٣ ملايين ، ورهن في مقابله ٣٦٥ ألف فدان ··

وفي العام الذى تلاه (١٨٦٦) عقد قرضـه الثالث بقيمة اسمية قدرها ثلاثة ملايين من الجنيهـات ورهن لضمانه ايرادات السكك الحديدية ··

وفي عام ١٨٦٧ عقد قرضا رابعا قيمته الاسمية ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه ··

ثم أعقبه في سـنة ١٨٦٨ بخامس قروضه وقيمتـه الاسمية

۰۰۰ر۸۹۰ر۱۱ جنيــه لم يقبض منها سوى ۳۸٤ر۱۹٥ر۷ جنيهــا وأطاحت ببقيتها السمسرة والمصروفات ‥ ورهن لضمانه ايرادات الجمارك والكبارى والملح ومصائد الاسماك ‥

وفى سنة ۱۸۷۰ عقد سادس قروضه ، بقيمة اسمية مقدارها ۸٦۰ر۱٤۳ر۷ جنيها لم يقبض منها سوى خمسة ملايين ‥

وفى عام ۱۸۷۳ عقد قرضه السابع بقيمة اسـمية قدرها ۳۲ مليونا قبض منها ۲۰ مليونا نقدا و ۹ ملايين صكوكا .. وتبددت البقية فى السمسرة والمصروفات ‥ ورهن لضمانه بقية الموارد التى لم تتناولها الرهون السابقة وكل ما يتحرر من تلك الرهون ‥

وفى عام ۱۸۷۸ عقــد آخــر قروضــه وقيمتــه الاسـمية ۰۰۰ر۵۰۰ر۸ جنيه برهن الاملاك التى نزلت عنها الاسرة الخديوية ‥ وقد بلغت قيمتــه الحقيقيــة ۰۰۰ر۲۰۰ر٦ جنيــه بعــد المصروفات والسمسرة، أما القيمة الصافية التى قبضها فاقتصرت على ٦ ملايين.

وزيادة على هــذه القروض بلغت الديون الســائرة ۲٥ مليونا وتراوح سعر فائدتها بين ۲۰٪ و ۲٤٪ ‥

وكان وزيره اسماعيل المفتش قد ابتكر شيئا غريبــا اسمه « المقابلة » مؤداه أن تحصل الضرائب العقارية عن ست ســنوات مقدما مقابل فائدة ٥ر۸٪ واعفاء دائم من نصف الضريبة المقررة ‥ وقد بلغ متحصل دين المقابلة هذا ۰۰۰ر۵۰۰ر۱۳ جنيه كمــا بلغ دين الرزنامة ـ وهو مدخرات الاهالى التى استولت الحكومة عليها بفائدة ۹٪ ـ ۰۰۰ر۲۳۷ر۳ .

وثمة ديون أخرى ارتفعت بمجمــوع الديون التى تردى فيهــا اسماعيل الى أكثر من ۱۲٦ مليونا من الجنيهات ‥

وقد أنفق اسماعيل هــذه الملايين على بذخه ومظاهره وملذاته

ورشاواه .. فقدر ما بذله لرجال الاستانة من الهدايا والرشا بمبلغ ١٢ مليونا من الجنيهات ... ليحصل على لقب « خديو » بعد أن كان « واليا » .. وليظهر بمظهرالملوك وهو غارق الى أذنيه في الاغلال.. وليعدل نظام توارث العرش فيجعله لابنائه بدل أبناء محمد على ..

وأنفق اسماعيل هذه الملايين فى اقتناء العقار ، حتى امتلك خمس مساحة الارض المزروعة . وراح يلجأ الى السخرة فىزراعتها واصلاحها .. وحتى بلغ عدد قصوره الباذخة ثلاثين قصرا فى مصر والخارج ، شادها وجملها وأثثها من دماء المواطنين ..

وأنفق هذه الملايين فى المضاربة فى البورصة - مع خدينه وصفيه اسماعيل المفتش . وفى حفلات افتتاح القناة.. وفى ملذاته الآثمة وفجوره الفاضح وفى رحلاته المسرفة ..

ولم ينفق اسماعيل قرشا واحدا من هذه الملايين فى سبيل الشعب أو مرافقه العامة .. فقد تساوى مجموع الموارد العامة مع مجموع المصروفات العامة .. وان تكن يداه قد امتدتا دائما الى هذه الموارد العامة وهى فى طريقها الى خزائن الدولة ..

وكانت سياسته المالية سياسة ابتزاز وارهاق .. وسرقة وامتصاص دماء ... فقد فرض ضريبة السدس ، وضريبة الرى ، وضريبة الاعانة ، وجعل نظام المقابلة قسرا واعتسافا .. وفرض ضريبة ترعة الابراهيمية ، وضريبة المبانى ، وضريبة المعاصر .. والدجاج والمواشى .. ودواب الركوب .. والعربات .. والاشخاص وضريبة الويركو .. وضريبة الصوف .. وضريبة الملح .. وأعاد الدخولية التى الغاها سلفه ..

وكانت جباية هذه الضرائب . وابتزاز هذه الاعباء الثقيلة المرهقة تمضى فى أعجب سبيل ..

كان مدير الاقليم يؤدى ما يطلبه وزير المالية فيقتطع لنفسه

ما تصل اليه يداه .. ثم يقتطع وزير المالية - اسماعيل المفتش - لنفسه ما يشاء .. ولا تمضى البقية فى سبيلها الى خزائن الحكومة قبل أن يأخذ الخديو لنفسه أوفى نصيب .

وكان رجال الحكومة وجباة الاموال لا يعطون ايصالات ، وعاش المولون فى جو من الارهاب والبغى والعدوان ، حتى ترك الملاك* أراضيهم فرارا من ذلك العذاب ، ولجأ الكثيرون منهم الى الاقتراض بالربا الفاحش لدفع المغارم الفاحشة .. فتغلغل سلطان المرابين الاجانب وتضاعفت ثرواتهم وتعرضت الثروة العقارية للبوار .. بل سارت الى بوار وضياع ..

وقد شهد الريف المصرى فى عهد اسماعيل أسود أيامه ولياليه ، واقترض الفلاحون أحيانا بفائدة سعرها ١٠٪ فى الشهر بل يزيد أى ان المرابين الدخلاء حصلوا على ١٢٠٪ فى العام فائدة لاموالهم الدنسة الملطخة بالدماء ..

ولم يكن اسماعيل يفرق قط بين مالية الحكومة وماليته الخاصة .. بل اعتبرهما جميعا ملكا خاصا له ولآبائه من قبله وأبنائه من بعده .. ومع ذلك أوردهما معا موارد التلف ، وانتهى الاستقلال المالى - الذى كانت مصر ومواردها جديرين به - الى التصدع .. نتيجة للديون الاجنبية والتدخل الاجنبى والاحتكار الاجنبى لمرافق البلاد ..

ولقد قرب اليه لصوص أوروبا فتدفق سيلهم على مصر احتماء بصداقته واستغلالا لسفهه .. وركونا الى الامتيازات الاجنبية .. ذلك أنه تملق القناصل ليكسب تأييد دولهم له حيال تركيا وهو أمل كاذب لم يلبث أن تحطم على صخرة الاطماع - فاغتصب القناصل لانفسهم وجالياتهم مزايا غريبة ، اذ انتزعوا سلطة الحكم فيما يقترف رعايا بلادهم من الجرائم وان وقعت على الوطنيين .. وسلطة الفصل فى القضايا التى يرفعونها على الاهالى

بل سلطة الحكم على الحكومة نفسها لصالح الرعايا الاجانب ..

وعندما استفحل خطر الامتيازات الاجنبية على يديه ، راح يعالج ذلك الداء بداء آخر هو جريمة انشاء المحاكم المختلطة التى شاركه فى اقترافها وزيره الاجنبى نوبار ..

حشد من الآثام :

لقد مضى اسماعيل فى انشاء القناة ، برغم الشروط المجحفة التى أدخلت على عمه سعيد .. وبعد أن قال قولته الكاذبة : « أريد أن تكون القناة لمصر ، لا أن تكون مصر للقناة » وبعد أن اعترض على بعض الشروط ثم استلان لتحكيم نابليون الثالث ـ ملك فرنسا ـ فى الخلاف القائم بين مصر والشركة الفرنسية .. فكان حكمه مثلا على الاجحاف والتحيز ..

وافتتحت القنـــــاة للملاحة فى ١٧ من نوفمبر سنة ١٨٦٩ وبلغت نفقات الاحتفالات التى أقيمت بهذه المناسبة ١ر٤٠٠ر٠٠٠ جنيه ... وظهر اسماعيل ـ بين الملوك والأمراء ـ بمظهر العاهل العظيم .. فنفست تركيا عليه ذلك ، وقامت جفوة انتهت بفرمان سنة ١٨٦٩ الذى قضى بألا يعقد اسماعيل قروضا بغير موافقـــة السلطان ..

واشتدت ورطته المالية ، وخدلته الدول الأوروبية التى فرش طريق ملوكها بالورود .. فسعى الى مرضاة تركيا بالرشا والهدايا التى حملها فى رحلته سنة ١٨٧٢ مصطحبا وزير ماليته اسماعيل المفتش ، ووزير خارجيته نوبار ...

عندئذ صدر فرمان سنة ١٨٧٢ ناسخا لذلك الفرمان..ثم صدر الفرمـــــان الجامع فى سنة ١٨٧٣ الذى منحه الاستقلال فى ادارة شئون مصر فيما عدا المعاهدات السياسية والتمثيل الخارجى .. والذى رفع الجزية الى ٧٥٠ الف جنيه فى العام ..

وقد كان اسماعيل ، قبل هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ ـ يترامى عند أقدام الفرنسيين ··· ثم انقلب خاضعا للنفوذ الانجليزى ·· فباعهم فى سنة ١٨٧٥ أسهم مصر فى القناة بأربعة ملايين من الجنيهات ـ وقد بلغ ثمنها فى سنة ١٩٢٧ ـ ٧٢ مليونا ·· وبلغت أرباحها التى عادت على الخزانة البريطانية عشرات الملايين ··

وكتب الكتاب الأوروبيون ، غداة عقدت هذه الصفقة المفجعة ان هذا العمل ان لم يكن فى ذاته احتلالا لمصر فانه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال · وقد صدق أولئك الكتاب مع بالغ الأسف ··

وتابع اسماعيل سيره فى ركاب الانجليز ·· فطلب اليهم ـ فى سنة ١٨٧٥ أيضا ـ ايفاد بعثة مالية لدراسة الحالة المالية للحكومة ، ولمعاونة وزير المالية على اصلاح ما أصابها من اضطراب ··· فسارعت انجلترا الى ايفاد بعثة « كيف » ·

وعلى غير هوى من اسماعيل ، وبرغم مظاهر الحفاوة والبذخ والتكريم التى أحاط بها البعثة ، فقد قدمت تقريرا أشارت فيه الى سوء الحالة المالية وفداحة شروط الديون ·· وقصرت عنايتها على رعاية مصالح الدائنين ·· ونددت بالاسراف وأطماع الأفاقين السياسيين والماليين ·· ثم أبدت مشورتها المغرضة العدوانية وهى اخضاع المالية المصرية للرقابة الأجنبية ··

وكانت فرنسا قد دست أنفها كذلك ، فأوفدت بدورها مسيو فيليه لمعاونة اسماعيل فى تنظيم ماليته ، لكيلا تنفرد انجلترا بتدخلها المريب ·· فلما قدم مشروعا موافقا لهوى اسماعيل استاءت انجلترا ولوحت بنشر تقرير لجنة كيف ··· وأذاعت أن الخديو يمانع فى هذا النشر ·· فانهارت سمعة مصر المالية ونزلت السندات الى الحضيض ··

ولم يلبث اسماعيل أن أعلن الافلاس فى أبريل سنة ١٨٧٦ باصداره مرسوم التوقف عن الدفع ..

وفى ٢ من مايو سنة ١٨٧٦ أنشىء صندوق الدين وبدأت الوصاية الأجنبية ..

وأنشئت خزانة خاصة لسداد الديون ، خصصت لها ايرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط . وعوائد الدخولية والجمارك والسكك الحديدية والدخان والملح والمصايد والكبارى وعوائد الملاحة النيلية ، وايراد أطيان الدائرة السنية .. وهكذا وجدت حكومة أجنبية مهيمنة على الحكومة .. وعلى مالية الدولة ..

وفرضت الرقابة الثنائية ، فعين مراقب انجليزى للايرادات ومراقب فرنسى للمصروفات تختارهما حكومتاهما ... واتخذ مراقب الايرادات لنفسه سلطة الترشيح والتعيين والعزل بالنسبة لمأمورى التحصيل جميعا ... كما اتخذ مراقب المصروفات سلطة تنفيذ قوانين الدين العام وتفتيش حسابات الخزانة .. وعدم الصرف بغير موافقته ..

واشترك المراقبان فى وضع الميزانية العامة ...

وأنشئت لجنة مختلطة لادارة السكك الحديدية .. ولجنة أخرى لميناء الاسكندرية ..

ثم صدر مرسوم بانشاء مجلس أعلى للمالية من خمسة أجانب وخمسة وطنيين ..

وفى ٢٧ من يناير سنة ١٨٧٨ شكلت لجنة التحقيق الأوروبية بعد عجز الحكومة وارتباكها . وبناء على طلب الرقيبين .. فقدرت العجز بين الموارد والمصروفات بمبلغ ٩ ملايين من الجنيهات وطالبت

الخديو ـ كمسئول عن هذا العجز ـ بالنزول عن أطيانه وأطيان أسرته ٠٠ فرضخ لمشيئتها ٠٠

وفي تلك السنة شكلت وزارة مختلطة برياسة نوبار ، حل فيها وزيران أجنبيان : انجليزي وفرنسي ، محل الرقابة الثنائية ٠٠ وتكون « مجلس النظار » لأول مرة في ظل السيطرة الأجنبية ٠٠

الشعب ينفض الغبار :

وتجمعت خيوط الضياء من ثنايا المحن السوداء ٠٠

لقد كان مجلس شورى النواب ٠ منذ أنشيء في سنة ١٨٦٦ لا سلطان له في أي شأن من شئون البلاد ٠٠ بل كان مظهرا كاذبا من مظاهر ذلك الطاغية المفتون ٠٠ فلما اشتدت الخطوب ، وتردى اسماعيل في مهاوي السفه والضعف والاستكانة ، بدأ صوت المعارضة في مجلس الشورى يرتفع لأول مرة ، في الدور غير العادي الذي عقد بطنطا في سنة ١٨٧٦ وكان هذا الصوت منبعثا من قلب الشيخ عثمان الهرميل ٠٠

ثم شهد المجلس بعد ذلك أسلوبا جديدا في مناقشة مقالة العرش ٠٠

واستطاع أن يعرض لمسألة الديون في دور ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧ ، وأخيرا تناول المسائل المالية والمسألة الدستورية ٠٠ بلسان محمود العطار وعبد السلام المويلحي ٠٠

وكانت الحياة الثقافية التي أراد لها محمد علي أن تحبو في ظلال العبودية ، وأن ترسف في أغلال الحكم المطلق ، قد تحطمت عنها الاغلال منذ وفد السيد جمال الدين الأفغاني على مصر في سنة ١٨٧١ ٠٠ وانبعثت في أرجائها دعوته الاستقلالية الحرة ، دعوة الجهر بالرأي ، ومغالبة الظلم وتعشق الحرية ٠٠

وانبعثت المنظمات الشعبية الوطنية .. فتألفت الجمعية الخيرية الاسلامية الأولى بالاسكندرية ، بمسعى السيد عبد الله نديم - داعية الوثبة العرابية فيما بعد - لمقاومة النفوذ الأوروبى .. وكان تأليفها فى سنة ١٨٧٨ وكانت وجهتها التعليم والبر ...

وولدت الصحافة السياسية الوطنية .. فكان أقدم الصحف السياسية فى مصر صحيفة « وادى النيل » فى سنة ١٨٦٧ لمنشئها عبد الله أبو السعود ... وقد ألغتها الحكومة فى سنة ١٨٦٧ ..

كذلك صدرت « نزهة الأفكار » فعطلها اسماعيل بعد عددين من صدورها .. وكان مصدراها ابراهيم المويلحى ومحمد عثمان جلال ..

وأصدر ميخائيل عبد السيد صحيفة « الوطن » .

وفى سنة ١٨٧٧ صدرت صحيفة مصر ، ثم أعقبتها فى سنة ١٨٧٨ صحيفة التجارة التى اتخذت فيما بعد اسم « النيل » أصدرهما أديب اسحق وسليم النقاش ... ونشرا فيهما تعاليم المصلح الفيلسوف جمال الدين الأفغانى حتى الغيتا فى سنة ١٨٨٠ ..

وصدرت روضة الأخبار لمحمد أنسى التى حلت محل وادى النيل .. والكوكب الشرقى لسليم الحموى ، والكوكب المصرى للشيخ محمد وفاء ، ومرآة الشرق التى تولاها ابراهيم اللقانى تلميذ جمال الدين ..

ولمعت فى المحيط الثقافى والأدبى - عدا من تقدم - أسماء الشيخ حسن المرصفى ومحمود سامى البارودى والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

وانطلقت غضبة الجيش أيضا .

وكانت سياسة اسماعيل حيـــاله من أول دواعي غضــــبه وثورته ..

كان قد بدأ عهده معنيا بشئونه ، ليرهب به تركيا ، فانشـ تسع مدارس حربية ... وشرع يزيد عدده وعدته .. ثم عاد به الى زوايا الاهمال ، فأغلق مدارســـه ولم يبق الا واحدة .. وآثر بعنايته وتمييزه ضباطه الجراكســـة والأتراك ، دون المصريين .. فقلدهم مناصب الرياسة فيه ، على جهلهم وعجزهم ... وتغاضى عن مفاسدهم ومظالمهم ، بل عن تلك الهزائم التى منوا بها فى سنتى ١٨٧٥ و ١٨٧٦ فى الحرب الحبشـــية . انصـــياعا لأركان الحرب الاوروبيين والأمريكيين... وبدل أن يحاكمهم على تقصيرهم قرب اليه قائدهم المهزوم وجعله من خاصـــــة بطانته . وعاونهـم على اضطهاد الضباط المصريين ، والوقوف فى سبيلهم ، والتعالى عليهم بالباطل ..

وهكذا شكلت الوزارة الأوروبية النوبارية ، والشعب ضائق ذرعا باســـماعيل وجرائمه ... وبطانته ... وأصدقائه الأجانب وسادته الانجليز والفرنسيين ..

وفى سنة ١٨٧٨ حدثت مجاعة فى الصعيد ــ بسبب فداحـــه الضرائب ونقص النيل ــ مات بسببها عشرة آلاف من المصريين ..

وعزلت الحـــكومة بعض الموظفين المصريين . وأخرت رواتب الباقين منهم .. وشمخ الموظفون الأجانب بأنوفهم كبرا واستعلاء..

وأحيل ٢٥٠٠ ضابط مصرى على الاســـتيداع ... وتأخرت رواتب الجيش ٢٠ شهرا ، انصياعا للدولتين الدخيلتين اللتين كانتا ترهبانه وتخشيان بأسه ..

وفى ١٨ من فبراير سنة ١٨٧٩ قام الجيش بوثبته الأولى ..

اجتمع ٧٠٠ ضابط بقيادة البكباشي لطيف سليم ، الاستاذ بالمدرسة الحربية ، وغادروا ثكناتهم وخلفهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية وألفان من الجنود ٠٠٠ ومعهم أربعة من أعضاء مجلس شورى النواب ٠٠٠ وتوجهوا الى وزارة المـــــالية ٠ لمواجهة نوبار رئيس النظار وريفرس ويلسون وزير المالية ٠٠٠

ولمح الثوار عربة نوبار خارجة من وزارة الخارجية ، فأحاطوا بها ، وأنزلوا رئيس الوزارة الأجنبى وضربوه ٠٠

وخرج اليهم وزير المالية الانجليزى يفرق بعصاه جمـــوع الثائرين فضربوه ٠٠٠ وحبسوه مع رئيس الوزارة فى مبنى وزارة المالية الذى احتلوه واستولوا عليه ٠٠٠

وأسرع اسماعيل الى وزارة المالية ليجرب « مهابته » فأحاطوا به وأطلقوا الرصاص حوله فى الهواء ٠٠٠ وضرب أحد الضـــباط بسيفه تشريفاتى الخديو فأصابه بجرح ٠٠

وأذعن الخديو ٠٠ وسقطت الوزارة الأوروبية فى١٩ من فبراير سنة ١٨٧٩ ٠٠٠

ولكن تألفت على أثرها وزارة برياسة الأمير محمد توفيق وفيها الوزيران الأوربيان أيضا ٠٠٠

وبدأ الدخلاء يكيدون لمجلس شورى النواب ، ففضت الحكومة دورته فى ٢٧ من مارس سنة ١٨٧٩ ٠٠

ولكن النائب محمد راضى وقف يقرر أن مدة المجلس لم تنته بعد ، ولا بد من دعوته لنظر المسائل التى تلكأت الحكومة فى تقديم بيانات عنها ٠٠٠ كما وقف عبد السلام المويلحى يهدد بالثورة ٠٠٠

وطعن بدينى الشريعى فى أى اجراء يصـــــدر بغير اشتراك

المجلس ... وأخذ باخوم لطف الله يذكر بحقوق الشعب ويطالب ببقاء المجلس حتى ينظر الميزانية ..

وظل النواب لا يريمون تحولا حتى تجاب مطالبهم ..

ثم قدموا عريضة فى ٢٩ من مارس سنة ١٨٧٩ باحتجاجهم على مسلك الحكومة ... وامتهانهـا حقوق المجلس واستنكارهم المشروع المالى ..

وأخذت اجتماعات الأحرار تعقد فى دار السـيد على البكرى وفى منزل اسماعيل راغب باشـا ... ثم عقدت الجمعية الوطنية ـ بدار الأخير ـ فى ٢ من أبريل سنة ١٨٧٩ وأعلنت مطـالب الشعب فى وثيقة وقع عليها ستون من النواب ، وستون من العلماء والهيئات الدينية ، وفى مقدمتهم شيخ الاسلام وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٢ من الموظفين و ٩٣ من الضباط الوطنيين ..

وكانت الوثيقة هى مشروع لائحة وطنيـة بنظام دستورى للبلاد ..

وقبل اسماعيل اللائحة الوطنية .. انحيازا لصفوف الشعب بعد أن خذله حلفاؤه وأصدقاؤه الأجانب ..

وتسارعت الضربات فى المعركة على نحو سافر عجيب :

احتج الوزيران الأوربيان فى ٧ من أبريل سنة ١٨٧٩ .

وفى اليوم نفسه تألفت وزارة شريف باشا على أسـاس المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب ..

وفى اليوم التـالى ـ ٨ أبريل ـ نشر تقرير لجنة التحقيق الأوروبية معلنا أن البلاد فى حالة عسر وافلاس ..

وعرض شريف اعادة الرقابة الثنائية فزعم الأوربيون أنهم اكتسبوا حقا أن يمثلهم وزيران ‎٠٠‎ واستقال أعضاء لجنة التحقيق الأوروبية بالاجماع احتجاجا على تأليف وزارة « وطنية » كما استقال بعض كبار الموظفين الأجانب ‎٠٠‎

وفى ‎١٠‎ من أبريل اجتمع مجلس شـــورى النواب ، وأعلن استمرار انعقاده ‎٠٠‎

وفى ‎١٧‎ من مايو قدمت اللائحة الأســاسية (دستور سنة ‎١٨٧٩‎) ولائحة الانتخاب ‎٠٠‎

وفى ‎٢٢‎ من أبريل سنة ‎١٨٧٩‎ صدر مرسوم بتسوية الديون طبقا للائحة الوطنية ‎٠٠‎ فاحتج أعضاء صندوق الدين ‎٠٠‎ ورفعوا قضية على الحكومة أمام المحاكم المختلطة ‎٠٠‎

وأصرت انجلترا وفرنســا على اعادة الوزيرين الأجنبيين ‎٠٠‎ فرفض الشعب ‎٠٠‎ وخضع اسماعيل لارادة الشعب فسعت الدوائر الأوروبية الى خلعه ‎٠٠‎

وتهاوى اسماعيل وتصدع ‎٠٠‎ ولم يجد سندا من الشـــعب الذى ناصبه من قبل العداء ‎٠٠‎ ولا من الجيش الذى وضع فى مكان القيادة فيه أولئك الأتراك والجراكسة الجهلة العاجزين ، وأبعد عن عرينه أسود الوطن الأكفاء الأشداء ، ثم ألهب ظهورهم بســياط ظلمه وغطرسته وتعاليه ‎٠٠‎

واستجابت حكومة الاســتانة للتدخل الأوروبى ‎٠٠‎ فأصدر السلطان أمره بخلع اسماعيل ـ برقيا ـ فى ‎٢٦‎ من يونية ســنة ‎١٨٧٩‎ وتولية ابنه توفيق ‎٠٠‎

وفى ‎٣٠‎ من يونية رحل اسماعيل ـ فى طريقه الى نابولى ـ على ظهر المحروسة ، التى كانت تنوء بحملها من اللآلىء والمجوهرات

والتحف .. فضلا عن أوراق مالية قيمتها ١٣ مليونا من الجنيهات كما قال ابنه توفيق ..

حمل اسماعيل أموال الشعب .. وحمل كذلك أوضار الغفلة والاستكانة ليبدأ الشعب حلقة جديدة من حلقات كفاحه بعد ١٧ عاما من حكمه « كانت وبالا على المصريين لشدة سرفه وطمعه وسوء تصرفه وعدم انصافه » كما يقول البطل المجاهد أحمد عرابى فى مذكراته ..

وذلك هو اسماعيل « العظيم » الذى افتروا له الأمجاد حين زعموا أنه « مفترى عليه » والذى أدخل مصر فى سلطان أوروبا فقالوا انه جعلها قطعة من أوروبا .. والذى علم أهل بيته وسراة عصره كيف يتفرنجون ويبذخون فتسابقوا الى اللكنة الاوروبية . وتنافسوا فى الانحلال الخلقى والدينى .. وفى التنكر للوطنية المصرية .. وسارعوا فرادى وجماعات الى المغانى الأوروبية ونثر الذهب المصرى فى الربوع الأجنبية ..

ذلك هو اسماعيل الذى عنى بالفن الأوروبى ليبدو أوروبيا أمام سادته الأوروبيين . فأنشأ مسرح الكوميدى بالأزبكية سنة ١٨٧٦ ودار الأوبرا سنة ١٨٧٩ بمناسبة حفلات القناة . ولكنه طرد فرقة يوسف خياط من مصر لأنها مثلت رواية « المظلوم » .

ذلك هو اسماعيل الذى رهن مصر كلها بمواردها ومستقبلها ليمتلك الأراضى والقصور .. ولهيبها خليفته توفيق وبين يديه الاحتلال الانجليزى ..

الحلقة الثالثة

الوثبة العرابية

ثمرة الانحلال

تولى توفيق بعد أبيه اسماعيل ، فى ٢٧ يونية سنة ١٨٧٩ وهو العام الذى بدأ بثورة الجيش الاولى – فى شهر فبراير – بقيادة البكباشي لطيف سليم ، والذى انتصف والبلاد كلها تنتفض غضبا وثورة .. والاستعمار الاجنبى يشق طريقه على أكتاف الحاكمين وأموال المرابين ، والنفوذ الاجنبى يستشرى فيسمم شرايين الحياة العامة ، ويملأ الرأس الفاسدة غرورا وخطلا ..

ان توفيق ، هو أكبر ابناء اسماعيل ، وأول من تولى حكم مصر بعد تعديل نظام توارث العرش ، وكان النظام الاول يفضى بالولاية الى محمد عبد الحليم بن محمد على اللائذ بحمى الاستانة ..

من أجل هذا بدأ توفيق – منذ اللحظة الاولى – يزجى عبارات العبودية والذلة للسلطان ..

ولكنه كان يخشى أيضا مساعى أبيه فى سبيل العودة الى الحكم فخفض جناح الذل للدول الاوروبية التى خلعت أباه ..

وكان يعانى زراية الاسرة المتعالية المتفطرسة ، لانه نتاج احدى الاماء من جوارى اسماعيل .. لذلك تعالى بدوره وتفطرس وكون لنفسه اسرة متعالية متفطرسة من العبيد والاماء وابنائهم وذراريهم ..

وشمخ توفيق بأنفه على المصريين « أبناء العرب » وشمخ معه أصفياؤه من الأرناؤود والترك والجركس من أوشاب المرتزقة وثمار الرق والعبودية .. فكان حاكما مستبدا ، نزاعا الى الاوتوقراطية .. وكانت حاشيته أسوأ مثال للاستبداد والبغى والعدوان ..

وبدأ توفيق حكمه أسوأ بداية ، فبعد أيام من ولايته — في ٦ من يوليه سنة ١٨٧٩ — فض مجلس شورى النواب وعطل الحياة النيابية ..

واستقال شريف من رياسة الوزارة فأبى توفيق أن يقبل استقالته .. فرفعت وزارته مشروع الدستور — اللائحة الاساسية — وتعاهد أعضاؤها على الاستقالة ورفض منصب الوزارة اذا لم يصدر الدستور ..

وسارع توفيق — المتغطرس المتعالي — فترامى تحت أقدام ممثلي انجلترا وفرنسا .. فأبداه ضد حقوق الشعب . وعندئذ قبل استقالة الوزارة . وتولى الحكم بنفسه ريثما يصل صنيعة العبودية رياض باشا ..

وفي ٤ من سبتمبر شكل رياض الوزارة ، وعين الوزيرين الاوربيين مستشارين خولت لهما سلطات واسعة ..

وأذعن لمطالب الاجانب في تسوية الديون .. ووجه سهام طغيانه واضطهاده الى الصحف الوطنية وأفسح سبيل التغلغل للنفوذ الاوروبي ..

وقبل نهاية العام الذى تولى فيه تكون — في الخفاء من الاضطهاد والبغى — الحزب الوطني ، الذى كان من دعائمه احمد عرابي وصاحباه عبد العال حلمي وعلي فهمي — والذى أذاع أول

بيــاناته فى ٤ من نوفمبر مطالبــا باعادة الاملاك الخــديوية الى الحكومة ، معترضــا على تســوية الديون وتخصيص الســكك الحديدية لضمان القرض الممتاز ، داعيا الى توحيد الديون بفائدة ٤٪ بغير ضمان سوى مالية الدولة ، والى الغاء الرقابة الاجنبية اكتفاء برقابة وطنية يشترك فيها الدائنون ..

وانطلق توفيق وحكومته فى أعقاب الوطنيين يشــددون عليهم الرقابة ويهددونهم ويضطهدونهم .. سواء من أعضــاء الحزب الوطنى أو من اعضاء جمعية مصر الفتاة التى تــكونت بالاسكندرية لتطالب بالحرية ..

كذلك نفى توفيق من مصر .. الســيد جمــال الدين الافغانى ..

واستمر توفيق على نهجه المعوج فى سنة ١٨٨٠ .. فساعد الاجانب على استغلال موارد البلاد ومرافقها .. وعلى انشــاء البنك العقارى وشركة السكر ، وامثالهما من الشركات الاجنبية الخالصة بأموالها وادارتها .

والغى قانون المقابلة ، الذى كان يعفى من نصف الضرائب مقابل ماتحمل الممولون من دفع الضرائب عن ست سنوات مقدما وما تحملوا فى ســبيل ذلك من الشــدائد ، ومن أعبــاء الديون الفادحة . فلما قدم السيد حسن موسى العقاد مظلمة نشرتهــا جريدة الريفورم قبضت عليه الحكومة وقدمته للمحاكمة ، فقضى المجلس بحبســه سنتين ، ولكن المجلس الاستئنافى شدد العقوبة الى خمس سنوات .. ثم قضى مجلس الاحكام بنفيه الى أقاصى الســودان ..

وفى شهر يوليه ســنة ١٨٨٠ ، أى بعــد عام من حــكمه

المنحرف ، أصدر قانون تصفية الديون ، متحيزا للدائنين الاجانب مجحفا بالاهلين ، بزيادة ضريبة العشر ..

وخضع للنفوذ الدخيل ، الذى كان يخشى قوة الجيش . فخفض عدده الى ١٢ الفا بدعوى الاقتصاد فى النفقات ، وكان الفرمان العثمانى الفاشم يسمح بأن يبلغ عدده ١٨ الفا .

وازداد نفوذ الموظفين الاجانب ، وازداد عددهم ، وتميزوا على المصريين بالمرتبات الضخمة والسلطان العريض .

فورة النفوس :

وانقضى عام ١٨٨٠ وحل عام ١٨٨١ والوطنيون تضطرب صدورهم ضيقا بذلك الحكم القائم على الاستبداد والاضطهاد .. وعلى الضعف والعبودية .. على اضطهاد أصحاب البلاد . والخضوع للمستغلين الدخلاء ..

فقد انتفى العدل ، وأنكرت المساواة ، وقيدت الحريات ، وأصبحت السخرة قاعدة فى تحقيق المنافع الخاصة قبل المنافع العامة ، واتسعت حلقات البغى والعدوان لمجرد اتهام واه أو وشاية مفرضة .. وكافحت الصحافة الوطنية فى ظلام الاضطهاد والتنكيل ، وتضاعفت أعباء الديون التى بددها اسماعيل فبلغت نصف ايرادات الدولة التى تجبى من عرق الشعب وكده بالعسف والظلم والارهاق .

الشعب يجد زعيمه :

ولكن الشعب كان قد وجد زعيمه .. وكان ذلك الزعيم هو أحمد عرابى ..

ومن حق القائد الوطنى الفلاح أن نشير الى نشأته اشارة موجزة ، فقد أفرد لذلك جانبا كبيرا فى مذكراته .

ولد فى ٣١ من مارس سنة ١٨٤١ فى قرية الهرية بقرب مدينة الزقازيق ، وكان ابوه شيخ البلد ، وهو من أسرة عربية .

تعلم فى قريته مبادىء القراءة والكتابة ، ثم دربه « ميخائيل غطاس » صراف القرية على الكتابة والاعمال الحسابية .. حتى رحل الى القاهرة فى سنة ١٨٤٩ فالتحق بالازهر وعاد الى قريته بعد أربع سنوات ..

وفى ٦ من ديسمبر سنة ١٨٥٤ الحق بالجندية تنفيذا لما قرره سعيد من تجنيد أولاد العمد والمشايخ ، ولأنه يجيد الكتابة والحساب فقد عين « بلوك أمين » .

وفى سنة ١٨٥٨ رقى الى رتبة الملازم وهو لم يزل بعد فى السابعة عشرة ..

وفى سنة ١٨٥٩ رقى الى رتبة اليوزباشى ..

وفى العام نفسه رقى الى رتبة الصاغ ..

وفى سنة ١٨٦٠ أصبح بكباشيا .. ثم قائمقام ..

وبدا لسعيد أن ينقص عدد الجيش فألغى بعض فرقه وفصل ضباطها ، وكان منهم أحمد عرابى . ولكنه ـ قبيل وفاته ـ أعاد عرابى الى الجيش برتبته السابقة ..

وفى عهد اسماعيل عادت الحظوة للجراكسة والترك ، ففصل عرابى ظلما وتعصبا .. ثم أعيد برتبته ..

وفى سنة ١٨٧٥ بدات دعوته بين الضباط الوطنيين الى الاتحاد .. فالتفت حوله قلوبهم ، لشخصيته الجذابة، وموهبته الخطابية ، وعارضته العربية ، وفطرته السليمة كعربى وطنى فلاح ..

وقد ظل ١٩ عاما فى رتبة القائمقام ، حتى رقى فى سنة

١٨٧٩ على عهد توفيق ، الى أميرالاى بعد أن تفوق عليه مماليك الاسرة الغاشمة وأذنابها ..

أما الشعب فقد وجده بعد ذلك .. فى مستهل سنة ١٨٨١ بعد أن نهض بثورته الاولى ، ونجح فيها ..

الوثيقة العرابية الأولى :

كان على رأس وزارة الحربية ناظر شركسى متعصب هو عثمان رفقى باشا .. وكان ــ على جهله وتجرده من المواهب ــ قد نفث سموم التفرقة العنصرية بين الضبـاط ، فأنكر حقوق الوطنيين منهم وحرمهم اياها ، وميز عليهم كل شركسى او تركى. حتى اشـتدت خيـلاؤهم وزرايتهم بالوطنيين وارهاقهم اياهم وعنتهم بهم وغلظتهم عليهم ..

وفى أوائل يناير سنة ١٨٨١ اصـدر امرا بنقل الاميرالاى عبد العال حلمى حشيش قائد آلاى طره معاونا بديوان الجهادية وتعيين خورشيد نعمان ــ وهـو شركسى ــ بدلا منه .. وأمرا آخر بفصل القائمقام احمد عبد الغفار من آلاى الفرسان وتعيين ضابط بدلا منه .

وفى ١٦ من يناير ــ قبل نشر الاوامر ــ علم بمضمونها أحمد عرابى ..

وعندما عاد الى منزله فى ذلك اليوم وجد لفيفا من صـفوة الضباط الوطنيين فى انتظاره ، فتدارسوا الامر . واختـاروه قائدا لحركتهم ، وأقسموا على السيف والمصحف يمين اتحادهم

وكتب عرابى عريضة الى رئيس الوزراء رياض باشا ، وقعها معه زميلاه على فهمى وعبد العال حلمى ، طلبوا فيها عزل عثمان رفقى من وزارة الحربية وتعيين وزير وطنى ، وزيادة عددالجيش

لى ١٨ ألفا وفقا للفرمان السلطانى ، وتعديل القوانين العسكرية كفالة العدل والمساواة .

وفى ١٧ من يناير ذهب الثلاثة الى وزارة الداخلية فسلموا لعريضة لوكيل الوزارة كى يسلمها لرئيس الوزراء .

ثم دعاهم رياض الى مقابلته فقابلوه .

وبعد أسبوع ذهب الثلاثة الى دار رئيس الوزراءمستفسرين عن مصير عريضتهم فهددهم وتوعدهم .

وفى ٣١ من يناير اجتمع مجلس الوزراء برياسة الخديو وقرر ايقاف الضباط الثلاثة ومحاكمتهم أمام مجلس عسكرى .

وتحايل وزير الحربية لاعتقالهم بأن أرسل الى ثلاثتهم تذاكر دعوة للحضور الى ديوان الجهادية بقصر النيل فى صباح أول فبراير للاستعداد لزفاف شقيقة الخديو .

وأحس الضباط الوطنيون بالمؤامرة . وأعدوا عدة المقاومة، وفى الموعد المضروب توجه الضباط الثلاثة الى قصر النيل تلبية لدعوة الوزير الشركسى .. فأحاطت بهم الرماح وسيقوا الى المجلس العسكرى الذى كان منعقدا ونزعت سيوفهم وألقى بهم فى السجن بين صفين من الضباط الجراكسة الشامتين .. وخسرو باشا كبير الجراكسة يردد على أسماعهم بالتركية عبارته الساخرة « فلاحين بتوع مقاطف » .

ونهض البكباشى محمد عبيد ، فى قشلاق عابدين ، بواجبه .. فدعا الى الاحتشاد ، واعتقل الضابط التركى خورشيد بسمى ، ثم قاد الجنود الى قصر النيل رافضا دعوة الخديو ووساطة ياوره ..

واحاط محمد عبيد ورجاله بديوان الجهادية .. ثم اقتحمه ففر وزير الحربية وضباطه الجراكسة من النوافذ ولاذوا بسراى عابدين احتماء بالخديو ..

واقترح الضابط الامريكى « استون باشا » استعمال القوة . فتبدد اقتراحه على وقع الاحداث ..

فقد فك محمد عبيد اسار المعتقلين الثلاثة .. وتوجه بهم وبجنوده الى ميدان عابدين ..

وفى الوقت الذى كان الخديو ومستشاروه الاجانب يعقدون الآمال على الآلاى السودانى المعسكر فى طره ، كان الضابط الوطنى البكباشي خضر خضر قد امر باعتقال خورشيد نعمان - بديل عبد العال حلمى - وخورشيد طاهر ، واحمد حمدى ياور الخديو .. ثم اتجه بالآلاى السودانى الى قصر النيل ..

وأرسل الخديو الى البكباشى خضر يطلب اليه العودة الى طرة ويبلغه أن الضباط الثلاثة قد أفرج عنهم .. ولكنه أبى ومضى برجاله الى ميدان عابدين منضما الى عرابى ورجاله ..

وبات الضباط الوطنيون فى قشلاق عابدين ، على أهبة الاستعداد ..

وفى ٢ من فبراير اجتمع الخديو بالوزراء والباشوات فى عابدين ليتشاوروا فى الازمة - وكان القناصل قد اشاروا على الخديو باجابة مطالب الضباط - فأذعن لمشورتهم وأوفد وزير الاوقاف محمود سامى البارودى ، ورئيس الديوان ليتاقيا مطالب الجيش ..

وقبل الخديو مطالب عرابى وصحبه فعزل عثمان رفقى وقلد البارودى وزارة الحربية بناء على اختيار الجيش ..

وبدأ الانجليز ينصرون الخديو على الوطنيين ..

وبدأ الفرنسيون يقفون فى الطرف الآخر ..

ثم انتصر الانجليز ، فسحب القنصل الفرنسى العام من مصر بعد أن شكاه توفيق الى رئيس الجمهورية الفرنسية ..

ومع ذلك فقد تظاهر الخديو بالرضا عن الضباط وأخذ يتملقهم ويخطب ودهم . وشكل مجلسا لبحث القوانين العسكرية واصلاحها .

وبينما راح البارودى يسعى جاهدا مخلصا للتقريب بين الضباط الوطنيين والخديو .. وبينما راح عرابى وصحبه يعلنون ولاءهم للغادر المخاتل ، كانت مؤمرات الدخلاء من رجال الحاشية تتابع حلقاتها فى جنح الظلام وكان على رأس المتآمرين يوسف كمال باشا وكيل الدائرة الخديوية ، ومحمد زكى باشا ناظر الدائرة ، وبعض الضباط المتزوجين من جوارى السراى .

وكانت كل المؤامرات ـ وقد كشفها عرابى وافصح عنها فى مذكراته ـ تكيد للضباط الوطنيين ، ولوحدة الجيش،وتذهب احيانا الى تدبير الاغتيالات .

وماطل الخديو فى التصديق على التعديلات العسكرية .

ودعت الحكومة فرق الجيش الى حفر الرياح التوفيقى ، فرفض الضباط لانها دعوة خفية الى نزع السلاح .

والتفت حبال « الفيلة » حول أعناق عرابى واخوانه .. فأقيمت حراسة وطنية ساهرة .

وحدثت حادثة ٢٥ من يوليه سنة ١٨٨١ بالاسكندرية . حيث كان الخديو بمصيفه براس التين . فصدمت عربة يقودها سائق اوروبى احد جنود الجيش بجوار السراى صدمة قاتلة أودت بحياته .

فلما حمل رفاق الجندى زميلهم المصاب الى سراى راس التين ملتمسين من الخديو الاهتمام بتعقب الجانى ومعاقبته اخذته العزة بالاثم . فطرد الجنود المفجوعين فى زميلهم . وأصدر امرا عسكريا بمحاكمتهم .

وصدرت على الجنود أحكام وحشــية غاشمة فقضى على اولهم بالاشغال الشاقة المؤبدة وعلى ثمانية آخرين بالاشــغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات على ان يقضوا العقوبة جميعا فى ليمان الخرطوم جزاء ما عكروا من المزاج العالى .

وسارع الخديو فصدق على الحكم ونفذه .

عندئذ رفع عبد العال حلمى تقريرا الى البارودى — وزير الحربية — شاكيا من قسوة الحكم ، فرفع الوزير ذلك التقرير الى الخديو .

وتعكر المزاج السامى مرة أخرى .. وفى هــذه المـرة راى الخديو أن يطرد الوزير ذاته .

واستدعى الوزراء برقيا الى الاسكندرية .. وطالب بعزل وزير الحربية .. فاستقال البارودى ليعين الخديو صهره داود يكن وزيرا للحربية ..

واسترسل توفيق فى غلوائه . فعزل محافظ القــاهرة أحمد الدرملى لانه من انصــار عرابى ، وولى بدله عبد القــادر حلمى ..

وانطلق صهر الخـديو ، داود يـكن ، فى سبيل التنـكيل بالوطنيين ، سافرا بغير قناع ..

فأمر بمنع اجتماعات الضباط .. وببقائهم فى آلاياتهم ليلا ونهارا .. وهدد باعتقالهم اذا اجتمع اثنان منهم ..

ورفض الضباط هذه الاوامر التعسفية المخالفة للقوانين العسكرية والمهينة لرجال الجيش ..

وفى الوقت الذى عاد فيه توفيق الى موقف العداوة من

الشعب .. كان السير مالت ـ قنصل انجلترا فى مصر ـ لا يفتأ يتردد عليه ليلا ونهارا ..

اما عرابى ، زعيم الضباط الوطنيين ، فقد أصبح ملتقى آمال الشعب كله .. وزعيم الوطن كله ..

ولقد نهض بأعباء الزعامة الوطنية قبل أن يقوم بوثبته الثانية .. فرفع ـ مع صحبه ـ عريضة الى السلطان ضد الخديو ، وبعث منشورا الى العلماء والاعيان والعمد والمشايخ . وهرعت اليه الوفود من كل صوب حاملة عرائض النيابة عنها فى مطالب الحرية والكرامة والعدل والمساواة .

الوثبة العرابية الثانية :

وقام عرابى بوثبته الثانية . فى صبيحة ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ حيث قاد جنوده الى ميدان عابدين ، بعد أن أخطر ناظر الجهادية وقناصل الدول الاجنبية . ومن خلفه وحواليه حشود الاهالى وجحافلهم ..

وبذلت محاولات فاشلة لخرق الاجماع الوطنى الرائع . ثم رضخ المتجبر الذليل فنزل الى ميدان عابدين وبجانبه قنصل انجلترا فى الاسكندرية وطلب مقابلة القائد الوطنى احمد عرابى فتقدم اليه على صهوة جواده . وبيده سيفه ووراءه ثلاثون فارسا من الضباط المصريين .. وجرت المحاورة التالية . كما رواها البطل الوطنى فى مذكراته ..

توفيق ـ انزل واغمد سيفك .

فترجل عرابى واغمد سيفه ..

توفيق ـ اغمدوا سيوفكم وعودوا الى ثكناتكم ..

فأبى الضباط أن يجيبوا الدعاء ، وبقوا شاهرين سيوفهم يحرسون قائدهم .

توفيق — لماذا جئت الى هنا ؟

عرابى — جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والامة، وكلها طلبات عادلة .

توفيق — وما هى هذه الطلبات ؟

عرابى — هى اسقاط الوزارة المستبدة وتشكيل مجلس نيابى على النسق الاوروبى ، وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية .

توفيق — كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم الا عبيد احساناتنا

عرابى — لقد خلقنا الله احرارا ، ولم يخلقنا تراثا ولا عقارا، ووالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم ..

وأشار السند البريطانى على عبده الخاضع — وارث ملك النيل ومالك رقاب العبيد لاحساناته — بالعودة الى داخل السراى .. فأطاع ..

ثم عاد القنصل البريطانى يناقش عرابى بلسان الخديوى .. فاستمسك الزعيم الوطنى بمطالب الامة ، ورفض أن يدخل فى جدال مع ذلك الدخيل .

واخيرا ، رضخ توفيق لارادة عرابى وغيره من عبيد احساناته .. واقسم انه مرتاح لذلك ، وانه وافق على المطالب الوطنية بنية صافية .

ودعى شريف من الاسكندرية اذ وقع عليه اختيار الجيش لرياسة الوزارة ، فوصل القاهرة فى ١٠ من سبتمبر واشترك

عرابى فى اختيار الوزراء ، وكان من بينهم محمود سامى البارودى للحربية ، تقديرا لاخلاصه للحركة القومية ، وردا لاعتباره .

وشكلت الوزارة فى ١٤ من سبتمبر ، ولكن شريفا سعى لابعاد الجيش عن السياسة فوافق عرابى اتقاء لدسائس الانجليز ومطامعهم .

وصدرت القوانين العسكرية المعطلة ، ونهض البارودى باصلاح المدارس الحربية .. ولكن شريفا لم يلبث أن سعى الى ابعاد عرابى وعبد العال من القاهرة ، فوافق عرابى ليقيم الدليل على ابتعاد الجيش ، ولكنه اشترط أن يصدر الامر بانتخاب النواب فصدر الامر فعلا فى ٤ من أكتوبر ..

وقد سبق آلاى عبد العال حلمى بالسفر الى دمياط ، فى يوم مشهود ، واحتفال شعبى وعسكرى بالغ الروعة ، تجلت فيه آيات التقدير القومى للجيش منقذ البلاد من الظلم والطغيان .

ثم سافر آلاى عرابى الى رأس الوادى فى ٦ من أكتوبر بعد وداع اجماعى من الشعب والحكومة ، وصحب عرابى السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية الاكبر ، ولقى الركب فى كل مكان مالم يلق زعيم من قبل ، والتهبت الشرقية كلها حماسا وعزة .

ولكن بعد عرابى وصاحبه عن القاهرة لم يكف فاواءالتدخل الاجنبى ، فقد طالبت انجلترا وفرنسا بتقصير مدة اقامة الوفد العثمانى الذى كان قد وصل الى مصر فى ٦ من أكتوبر ثم تدخلتا تدخلا سافرا بمظاهرتهما العسكرية الاولى .. اذ حضرت الى الاسكندرية بارجة فرنسية واخرى انجليزية ولم تبارحاها الا فى ٢٠ من أكتوبر غداة عودة الوفد العثمانى الى بلاده .

وظلت الحركة العرابية على حذرها ونقاوتها وسلامة نهجها فأجريت الانتخابات لمجلس النواب ، حرة من كل تدخل ،

مبرأة من كل زيف .. وضرب العرابيون فيها أعظم مثل على احترام الحريات ورعاية الحقوق الاساسية للجميع .

وفى ٢٦ من ديسمبر افتتح مجلس النواب ، وكان البطل المصرى محمد عبيد يقود أورطة الاحتفال .

عام حافل :

وحل عام ١٨٨٢ .. فسارعت الحكومة فى ٢ من يناير الى تقديم مشروع الدستور الى المجلس النيابى . وانتخبت لجنه لدراسته .

وكان نفوذ عرابى قد اتسع واكتمل .. وكان حبه قد تمكن من كل قلب . فخشيت وزارة الحاكم المترفع من ذلك النفوذ وهذا الحب . وعينته وكيلا لوزارة الحربية .

ولكن بيته فى القاهرة أصبح مقصد ذوى الحاجات . وملجأ أصحاب الشكايات . وقبلة المراسلين والصحفيين من كل ناحية وجنس .

وعلى حين فجأة . افرخت المؤامرة التوفيقية . فتوجه المعتمدان البريطانى والفرنسى فى ٨ من يناير الى عابدين ومثلا مهزلة التدخل الملتوى . فقدما مذكرة مشتركة من دولتيهما تؤيدان فيها سلطة الخديو ، وتبنيان تدخلهما المريب على الحوادث الاخيرة ومنها صدور الامر الخديوى باجتماع مجلس النواب .

وهكذا أراد توفيق لنفسه .. ان يستعدى على نفسه سلطان دولتين أجنبيتين ليؤيد سلطة نفسه .. وان يكون سند التدخل العجيب هو اجتماع مجلس النواب ..

وكانت مؤامرة بالغة السخف .. والهوان .. فتلهب الرأى العام سخطا وغضبا .. واضطر شريف الى الاحتجاج لدى المعتمدين الباغيين ..

وفى ٢٦ من يناير تكلم شخصان آخران بلسان توفيق .. اذ قدم الرقيبان الاوروبيان مذكرة يطلبان فيها ألا يخول مجلس النواب حق تقرير ميزانية الدولة ..

وتراجع شريف فى هذه المرة حيال التدخل الفاجر .. ولاذ بالسبل السياسية الخائرة فنصح بارجاء نظر المادة الخاصة بالميزانية من مواد الدستور ..

وأبى عرابى والوطنيون فى مجلس النواب أن يسلكوا سبيل الخور والمهانة .. وأن يقبلوا هذا العدوان الآثم على حقوق الامة وكرامتها .. فقرر المجلس نظر تلك المادة فورا ..

وفى ٣ من فبراير استقالت وزارة شريف ، تخاذلا واستخذاء

وفى ٤ من فبراير تألفت وزارة البارودى ، ودخلها الزعيم الوطنى أحمد عرابى وزيرا للحربية .. وانتصرت كلمة الامة ، وأحبطت مؤامرة توفيق وسادته . وغابت وجوه الاشرار خلف حجب التربص والدس والخيانة ، وتحدث العالم كله عن أحمد عرابى ، واجتمعت الى قوة الزعامة سلطة الحكم .. ونفضت الثورة المباركة ايديها من وهن السياسيين المحترفين..وحبائلهم الممدودة .

واقر مجلس النواب مواد الدستور . وصدر به الامر الخديوى فى ٨ من فبراير .

وبدت كرامة الحركة الوطنية ونزاهتها وصفاؤها . فاتجه النواب الى الخديو شاكرين .

واستكان المتجبر الذليل فأعرب للنواب عن ميله «الفريزى» الى صلاح ومنفعة الرعية .

ومضى المجلس النيابي فى عمله صادقا حتى انتهى دور انعقاده .

عندئذ أزاح الطاغوت الذليل عن وجهه حجب التربص .
نسج خيوط مؤامرة الضباط الجراكسة التى انكشفت وانكشف
معها وجهه الغادر .

ففى شهر ابريل علم أحمد عرابى أن بعض الضباط
الجراكسة يدبرون الامر لقتله وقتل رؤساء الضباط والوزراء
الوطنيين ، فعرض الأمر على الوزراء .. ثم على الخديو .
ولم يستطع توفيق أن يقف فى صف الجريمة منذ اللحظة
الاولى بل أرجأ ذلك الى حين ..

وشكل مجلس للتحقيق برياسة الفريق راشد حسنى باشا،
فواصل المجلس تحقيقه حتى بلغ عدد المقبوض عليهم ٤٠ ضابطا
شركسيا على راسهم كبيرهم عثمان رفقى وزير الحربية الاسبق

وفى ٣٠ من ابريل أصدر المجلس حكمه بنفى الضباط
الاربعين الى أقاصى السودان ، مع تجريدهم من رتبهم العسكرية
وامتيازاتهم ونياشينهم ، وتفريقهم فى جهات المنفى ، بعيدا عن
الخرطوم وعواصم المديريات والسواحل .. كما حكم على راتب
باشا ، قطب المؤامرة ، بالتجريد والحرمان من العودة الى مصر
والنفى ان هو عاد اليها .

واجترأ توفيق ــ ذلك الذى قضى بالسجن المؤبد والاشغال
الشاقة بليمان الخرطوم على جندى وطنى لانه لجأ الى رحابه
الدنس ــ فامتنع عن التصديق على الحكم .

وغضبت الوزارة الوطنية .. وركب توفيق راسه فعدل
الحكم الى النفى من القطر المصرى الى اية جهة يشاءون مع عدم
حرمانهم من رتبهم ونياشينهم .
ولكن جنابه العالى لم يجرؤ على التوقيع على ذلك التعديل
الا بحضور القنصلين الانجليزى والفرنسى ، واشرافهما ورعايتهما

واشتد غضب الوزارة الوطنية .. وذهب البارودى الى توفيق عقب فعلته فوجه اليه اللوم الشديد ، وطالبه باضافة عقوبة التجريد الى أمر التعديل .. فأصر على ارادته السنية ـ المستمدة من رعاية الدخلاء المستعمرين ..

وفى ١٠ من مايو اجتمع مجلس الوزراء اجتماعا طويلا .. ورأى دعوة مجلس النواب للنظر فى موقف الخديو ، فى حين راح جنابه الفخيم يتشدق بأنه لايطيق استمرار هذه الحال ، وما يراد من المساس بامتيازاته .. وهى حماية السفاكين المتآمرين ، والعدوان على أرواح القادة والزعماء ..

وكان توفيق الحائر المتداعى قويا بذلك النفوذ الدخيل ..

نعم . فقد تقدم قناصل الدول الى مجلس الوزراء اثناء انعقاده الطويل يتساءلون عن الخطر الذى يتهدد الرعايا الاوربيين ـ ذلك الخطر الماثل فى عودة مجلس النواب الى الانعقاد ..

على أن توفيقا قد رفض توقيع الامر بدعوة المجلس .. فدعت الوزارة النواب لتتعرف على آراءهم ..

ولبى معظمهم دعوة الوزارة .. وتعددت اجتماعاتهم الخاصة وواصل مجلس الوزارء اجتماعاته ..

ودعى سلطان باشا للوساطة ـ وكان قد وصل بثرائه ودعوى وطنيته الى رياسة مجلس النواب ، واستطاع أن يستخلص للخديو صمت الوزارة على موقفه من الحكم وتعديله ..

ولكن الخيانة قد بلغت من توفيق درجة استنصاره بالاسطولين الانجليزى والفرنسى ..

توفيق فى الهاوية :

لقد كان موقف توفيق من مؤامرة انضباط الجراكسة خليقا بأن ينتهى بعزله .. وهكذا اتجه عرابى واتجهت الوزارة

الوطنية ، ولكن الحركة القومية حين تخلصت من الساسة المحترفين لم تكن قد تخلصت من الاقطاعيين وأطماعهم .. وعلى راسهم سلطان باشا ومن بينهم فريق من النواب ــ وكانوا جميعهم ينتخبون بواسطة عمد البلاد ــ وقد استطاع هذا النفر القليل أن يفقد قرار العزل صفة الاجماع ..

وقد كانت الدعوة الى عزل توفيق التى جهر عرابى بها منذ اليوم الاول من مفاخره ووحى فطرته العربية الريفية العسكرية الوطنية .. ولكن بعض المؤرخين ، ومنهم وطنيون مع بالغ الاسف يأخذونها عليه ..

ولو أن الحركة المباركة انطلقت على سجيتها ووحى قوميتها وشعبيتها ، لخلصت البـــلاد ومستقبلها من ذلك الخائن ، ومن حماته وشركائه الانجليز .

ولكن الشعب المصرى ، وتاريخه الوطنى ، كان مقدرا لهما أن يتلقيا ذلك الدرس الاليم .

ففى ١٢ من مايو اتفقت دولتا العدوان والبغى ، انجلترا وفرنسا ، على القيام بمظاهرتهما العسكرية الثانية فى ميناء الاسكندرية ، بعد أن تحدثتا عن الاخطار التى يستهدف لها الرعايا الانجليز والفرنسيون .

وفى ١٩ من مايو بدأت البوارج الباغية تصل ميناءالاسكندرية فأطلقت المدافع المصرية طلقاتها تحية لها باعتبارها فى زيارة ودية .

وركن توفيق الى الصمت ، اكتفاء بالألسنة الأجنبية .

فقد سعى القنصل الفرنسى لدى الزعماء الوطنيين ــ بلسان سلطان باشا ــ لاستقالة البارودى وخروج عرابى من مصر كلها .. فرفض الوطنيون .

وعندئذ انحاز سلطان باشا علانية الى الخائن الاكبر محمد توفيق .

وفى ٢٥ من مايو وصلت تعليمات الحكومتين الفاجرتين الى قنصليهما بتقديم المطالب الباغية ، وهى استقالة البارودى وابعاد عرابى مؤقتا من مصر مع حفظ رتبه ونياشينه . وتحديد اقامة كل من عبد العال حلمى باشا وعلى فهمى باشا فى الريف مع حفظ رتبهما ونياشينهما .

وفى ذات اليوم اجتمع الوزراء وقرروا رفض الانذار .

ويفترى التاريخ المغرض فيأخذ على عرابى أنه لم يقبل هذه « التضحية » حماية للبلاد من التدخل المسلح . متناسيا ان ذلك العدوان المسلح كان واقعا لا محالة ، لان المستعمرين كانوا قد عقدوا عليه العزم ، وجعبتهم دائما مليئة بالاسباب المصطنعة الواهية . وفى أحد جيوبهم يقبع محمد توفيق بعظمه ولحمه ..

ولكن ذلك التاريخ المغرض لم يستطع أن يمحو من جبين توفيق عار ذلك العدوان ، مهما افترى ، ومهما تخبط .

فلقد سارع توفيق الى قبول مطالب الدولتين .. أو الى قبول مطالبه هو بلسان حماته وسادته ... فاستقالت وزارة البارودى فى ٢٦ من مايو احتجاجا على الانذار والقبول معا .

وبرغم استقالة الوزارة ، بل بسببها ، ظل عرابى على اتصال دائم بالضباط ، كما ظل رئيسا للحزب الوطنى ، وظل الضباط على تمسكهم به واعتبارهم اياه وزيرا للحربية ، وظلت الأمة على تمسكها بزعامته وقيادته . واضطر قناصل الدول الاجنبية أن يتجهوا اليه لتأمين رعايا بلادهم .

وفى ١٧ من مايو عقد الخديو بسراى الاسماعيلية اجتماعا دعا اليه النواب والعلماء والاعيان وأصحاب المناصب .. ولم يجد بينهم من يقبل رياسة الوزارة فتولى الحكم بنفسه .

وفي مغرب ذلك اليوم عقد اجتماع آخر في دار سلطان باشا فاقتحم عرابي دار الردة وخطب في المجتمعين خطبة مزلزلة ، فهدد فيها الواهنين وأذناب الخديو ، وكشف عن جرائمة وجرائم آبائه وأجداده .. ثم طالب بخلعه بعد أن تردى في الدرك الاسفل حتى أنتهى الى هاوية ليس لها من قرار .

كذلك اقتحم مكان الاجتماع جمع من الضباط الوطنيين منهم عبد العال حلمي وعلى فهمي ومحمد عبيد ، منادين بخلع توفيق منكرين على أى مصرى أن يبقى على الولاء له .

وأعلن عرابي عزمه على محاصرة سراى الاسماعيلية ليقطع السبيل بين توفيق وحلفائه المستعمرين . فسارع سلطان باشا الى تمثيل دور الحية الرقطاء . ونصح توفيق بالابقاء على عرابي وزيرا للحربية . فأصدر الخديو أمرا الى الزعيم الوطنى بذلك وهو واجب لم يكن عرابي ليستطيع التخلى عنه في تلك الظروف المضطربة الهوجاء .

ثم بدأ الاستعمار الانجليزى يعد عدته للانفراد في عدوانه . مستعينا في مناوراته بحلفائه الفرنسيين – الذين ترك لهم من قبل مهمة احتلال تونس – ثم بصنيعته الذليل محمد توفيق .

ففي ٢٩ من مايو اصطنع قائد الاسطول البريطاني في الاسكندرية سببا عجيبا لطلب المدد من دولته هو قيام تحصينات مصرية في قلاع الاسكندرية .

فسارعت دولته الى زيادة قطع الأسطول في مياه الثغر المصرى .

وفي ٣٠ من مايو قامت فرنسا بدورها في المهزلة فدعت الدولة الأوربية الكبرى لعقد مؤتمر الاستانه للنظر في المسألة المصرية لتذر الرماد في عيون السياسة الدولية ولتتيح لحليفتها الاستعمارية فرصة المباغتة .

وقد سارعت الدول الكبرى الى تلبية دعوة فرنسا ، وكان أول المستجيبين انجلترا .

وتحركت حكومة الاستانة من غفوتها ، ووجد الحكام الاتراك برغم انهماكهم فى الرشوة والاستغلال ، وقتا يقررون فيه ايفاد بعثة عثمانية لمعالجة الحالة فى مصر .. وكفاهم ذلك مئونة الاشتراك فى ذلك المؤتمر الذى اقحم نفسه فى شئونها .

وقدسبق الوفد العثمانى أمر شاهانى بمنع التجهيزات والترميمات فى حصون الاسكندرية ، على نية تهديد الاسطولين الاجنبيين ، فأمر عرابى بالكف عن الترميمات الاعتيادية ..

مذبحة الاسكندرية :

ثم تقدم الانجليز خطوة اخرى فى سبيلهم الاجرامى ، فدبروا تلك الحادثة التى آسموها مذبحة الاسكندرية ليملئوا الدنيا بها دويا وصياحا .

وكان اداة هذه المأساة مجرم مالطى من رعاياهم هو شقيق خادم القنصل البريطانى ..

ففى ١١ من يونية استأجر ذلك المالطى حمارا وأخذ يطوف به الارجاء منذ الصباح الى مابعد الظهيرة .. متنقلا من مقهى الى حانة .. حتى انتهى الى مكان قريب من قسم اللبان ، فاذا به يدفع لصاحب الحمار ـ بعد هـذا اليوم المجهد ـ قرشا واحدا .. فلما ناقشه فى الاجر استل سكينا وراح يطعنه حتى فارق الحياة .. ولاذ بمسكن قريب يسكنه بعض مواطنيه المالطيين ..

وعندما هرع الاهالى يريدون اللحاق به أخذ المالطيون يطلقون عليهم النار ، فسقط منهم من سقط قتيلا أو جريحا .

وثارت نفوس الجماهير .. ووقعت معركة بين الوطنيين

والاوربيين امتد ميدانها واتسع .. وكان سلاح الاجانب البنادق والرصاص ، أما سلاح الوطنيين فكان العصى والهراوات ..

وجرح القنصل الانجليزى .. والقنصل اليونانى .. وعندما تدخل الجيش وامسك بالزمام كان عدد القتلى قد بلغ ٤٩ منهم ٣٨ أجنبيا و١١ وطنيا .

وفى صبيحة اليوم التالى ١٢ من يونيــة ــ بدأت حلقــات العدوان التى تعاقبت استغلالا لهذا الحادث المدبر ، فقد عقد توفيق اجتماعا فى عابدين مع قناصل الدول الاوروبية فأعطاهم الضمانات الوثيقة لصــيانة الارواح ، وهى تتركز فى « امتثــال عرابى لأوامره » .

ودعى عرابى الى ذلك الاجتماع فقبل ما تقرر فيه وتعهد بتهدئة الخواطر .. ووفى بعهوده فعلا .

مسرح الخيانة :

وفى غمار البلبلة والاضطراب ــ والاجانب يرتحلون سراعا الى بلادهم بالآلاف حتى بلغ النازحون منهم فى مدى شهر بعــد الحادثة ستين الفا ــ سافر توفيق الى الاسكندرية لكى يستظل بجناحى اربابه الانجليز .. وكان سفره فى ١٢ من يونية .

وتألفت وزارة اسماعيل راغب ، وظل عرابى وزيرا للحربية .. فامتنع الرقيب المالى الانجليزى عن حضور اجتماعات مجلس الوزراء .. وغادر القناصل البريطانيون مصر ..

وفى ١٠ من يوليه انسحب الأسطول الفرنسى الى بور سعيد ليخلى الميدان للانجليز .. وكان مؤتمر الاستانة يعقد جلساته ويتابع مشاهد التمثيلية الهازلة .. ومع ذلك ففى ١١ من يولية ضرب الاسطول الانجليزى الاسكندرية ..

وهكذا خدع الانجليز ساسة العالم كله ، فألقى المؤرخون المغرضون تبعة الغفلة كلها على عاتق عرابى واخوانه .. أولئك الذين كابدوا من دسائس المستعمرين ماكابدوا .. ومن غدر المحترفين وتخاذلهم .. ومن ردة المرتدين من الاقطاعيين وأدعياء الوطنية وصنائع الطغيان ..

والحق أن عرابى وصحبه لم يخدعوا .. ولم تأخذهم الغفلة . وانما أخذتهم الخيانة في مختلف ألوانها المقيتة وصورها الشائهة ..

ولقد اخترع القائد الانجليزى وسيلته الى العدوان ببساطة انجليزية .. فأرسل فى ٦ من يوليه الى قومندان موقع الاسكندرية مطالبا بالكف عن أعمال التحصين التى توقفت منذ ٥ من يوليه .. فلما أجابه بالواقع عاد فى اليوم ذاته فكرر طلبه منذرا بتدمير القلاع .. فتكررت الاجابة ذاتها .. وفى ١٠ من يوليه أرسل بلاغا آخر يطلب تسليمه البطاريات المنصوبة فى حصون شبه جزيرة رأس التين .. منذرا بضرب تلك الحصون فى صباح ١١ من يوليه

واستمر توفيق يمثل دور الحاكم المصرى ، فعقد مجلسا عاما استقر الرأى فيه على رفض طلب الاميرال الانجليزى .. وحرر الوزراء ردهم بالرفض والاحتجاج ..

ولكن الاميرال الانجليزى كان ماضيا فى سبيله المرسوم فضرب الاسكندرية فى الساعة السابعة من صباح ١١ من يوليه .. واستمر تبادل النيران حتى الثانية بعد ظهر ذلك اليوم .. والوطنيون يدافعون عن قلاعهم دفاع المستميت .. ولكن قوة الأسطول كانت لها الغلبة ..

وانسحب الجيش المصرى من الاسكندرية لينهض بالمقاومة فى الداخل .. ونزل الانجليز الى الثغر فى ١٣ من يولية ..

وأقام عرابى استحكاماته بالقرب من كفر الدوار .. فى حين

تربص الانجليز فى الاســـكندرية حتى جاءهم المدد ، مستعينين بالخديو وخرافة نفوذه الشرعى ، معلنين انهم مكلفون من قبله بالمحافظة على انتظام ..

وفى ١٧ من يولية أبرق توفيق الى عرابى يأمره بالكف عن الاستعدادات الحربية ويحمله تبعة ضرب الاسكندرية .. ويتردى فى هاوية الدفاع عن الانجليز ومقاصدهم ونواياهم ..

وكان طبيعيا ان يجيب عرابى بالرفض ، وأن ينفض عن كاهله مسبة التبعية لذلك الخائن المارق الذليل . وأن يرسل الى جميع المديريات والمحافظات برقيات بخيـــانة توفيق ومروقه وممالأته للانجليز . محذرا من الاستماع اليه .

تم ذلك كله فى اليوم نفســه ـ ١٧ من يوليه ـ وفى ذلك التاريخ ايضا عقدت الجمعية الوطنية بالقاهرة وقررت المقاومة ، ودعوة الوزارة من الاسكندرية .

وفى ٢٠ من يوليه أصدر توفيق أمرا بعزل عرابى من وزارة الحربية واذاع منشورا يدافع فيه عن سادته الانجليز وحسن نواياهم .

واجتمعت الجمعية الوطنية العمومية مرة أخرى وقررت مروق الخديو ، وعدم قبول امره بعزل عرابى ، ووقف أوامره كلها وأوامر وزرائه وعدم تنفيذها ..

الملاحم الوطنية :

ووزعت قوات الجيش المصرى على مواقع كفر الدواروساحل البحر الابيض ودمياط ورشيد . كما اقيم معسكر فى التل الكبير .. ولكن أكبر العناية كانت متجهة الى الميدان الغربى لمواجهة الزحف الانجليزى من الاسكندرية ..

وقد هزم الانجليز فى كل واقعة فى ذلك الميدان .

هزموا فى واقعة الرمل فى ٥ من اغسطس ... وفى واقعة كفر الدوار الاولى فى ٧ من أغسطس ... برغم الامدادات المتوالية التى صيرت عددهم وعدتهم أضعاف مالدى المصريين .

وشرع عرابى يجند الخفراء ... والمقترعين ... ونهضت حركة التطوع على صورة شاملة نادرة .

وتبرع الاهالى وجادوا بالمال والجهد والعتاد ، ليعوضوا آثار الاختلاس الذى أقدم عليه المراقب المالى الانجليزى ، واخوانه اعضاء صندوق الدين . اذ استولوا على أموال الخزانة ونقلوها الى الاسطول ..

ووقعت معركة كفر الدوار الثانية فى ١٩ من أغسطس فهزم الانجليز وارتدوا خاسرين ... وكذلك فى ٢٠ و ٢١ و ٢٢ من اغسطس ...

اما الميدان الشرقى فكان مهد الخديعة والخيانة ..

خرق الانجليز حياد القناة ، وقام ديلسبس الفرنسى بدوره كما قامت حكومة بلاده طوال هذه الملحمة الدامية .. واستمر يؤدى ذلك الدور الفاجر حتى وصلت البوارج الانجليزية بورسعيد لاحتلال القناة .

وانكشفت الخديعة ... ولكن بعد فوات الأوان .. وشرع عرابى فى سد القناة .. ولكن بعد أن كان الانجليز قد اقتحموها ثم احتلوا بورسعيد والقنطرة والاسماعيلية وموقعا على القناة شمالى مدينة السويس ..

وكانت شركة القناة الفرنسية أحد طرفى المؤامرة .

ولقد ائتلفت على الوطنيين المصريين وعلى أرض مصر كل عوامل الخيانة والغدر ..

في ٢١ من اغسطس توجه الفريق راشد باشا حسنى الى الخط الشرقى ومعه فرقة من المشاة والمدفعية والفرسان . فوضع حامية فى فايد وأخرى فى نفيشة . وجعل مركزه فى المسخوطة . ثم لحق به رئيس أركان الحرب محمود فهمى باشا ليشرف على الاستحكامات وعلى منع موارد المياه العذبة عن مراكز الانجليز .

وفى ٢٤ من أغسطس دارت معركة بين المسخوطة والاسماعيلية تكبد فيها الانجليز خسائر جسيمة .

وسارع عرابى الى ميدان القتال . قادما من كفر الدوار كما سارع الى الميدان على فهمى وجنوده من القاهرة . وحضر خضر من كفر الدوار وعقد مجلس حربى برياسة عرابى تقررت فيه خطة الهجوم في واقعة القصاصين الأولى بقيادة راشد حسنى ، على أن ينضم الى الجيش جيش آخر قادم من الصالحية بقيادة محمود سامى البارودى .

وفى ٢٨ من أغسطس وقعت المعركة ، وظل القتال من الصباح الى الليل عنيفا شديدا حتى تراجع الفريقان فى المساء .

وبينما كان الجيش المصرى منصرفا الى الجهاد المقدس مشتركا فى المعارك الوطنية الفاصلة ، كان الانجليز فى تركيا قد اشتروا ضمير الصدر الأعظم فأعد منشورا وقعه السلطان الغافل يعلن فيه عصيان أحمد عرابى ورفاقه وأعوانه ومخالفتهم للشريعة الاسلامية الغراء .

ونشط توفيق فى اذاعة المنشور الغادر ، فأوفد الى الاسماعيلية سلطان باشا وعمر لطفى باشا وفريد باشا ومعهم آلاف النسخ من ذلك المنشور ، ومن منشور الخديو الذى يحث على مساعدة الانجليز ... للتأثير على الضباط المصريين ، وللتجسس على الجيش .. وانطلق بعض اعضاء ذلك الوفد الخديوى الى المدائن والقرى يوزعون المنشورات ويدعون الى مساعدة الانجليز ضد ذلك العاصى لمشيئة « أمير المؤمنين » ..

ووســـط هذه السهام المسمومة قامت موقعة القصاصين الثانية فى ٩ من سبتمبر .. وفعلت الخيانة فعلها ـ بتأثير الغدر السلطانى والخيانة الخديوية ـ فعلم العدو بخطة الجيش الوطنى ونظام هجومه .. كما فعلت المصادفة السيئة فعلها فتأخر جيش الصالحية عن موعد وصوله الى مكانه من المعركة ..

وثبت الابطال المجاهدون حتى مغرب الشمس ، فجرح راشد حسنى ، وعلى فهمى ، وخسر الجانبان خسائر فادحة .. ودعى على باشا الروبى ليتولى قيادة الجيش بدلا من قائده الجريح ..

وتجمعت قوات الوطنيين فى التل الكبير ... وشرع على الروبى يستكمل استحكاماته ... وينظم تشـــكيلاته ، ويتعرف مواقع القتال .

وفى ١٣ من سبتمبر ، وكان عرابى يؤدى صـــلاة الفجر ، باغت الانجليز استحكامات التل الكبير بنيران مدافعهم وبنادقهم .. وراحوا يصبون قذائفهم على مركزها العام ..

واخذ الرعب قلوب المتطوعين من الاهالى ، فتفرقوا فرارا ، وواجه الجنود النظاميون نيران العدو عزلا من السلاح وهم فى ملابس نومهم .. ولكن ثلاثة آلايات صمدت فى وجه العـــدوان المباغت ، بقيادة كل من البطل الشهيد محمد عبيد ، الذى روى بدمائه ارض التل الكبير . واحمد فرج وعبد القادر عبد الصمد .

وكان مبعث الهزيمة أولئك الضباط الذين انحازوا الى الخديو فمضوا مع الانجليز بارشـــاد عربان الهنادى ، لمحاربة الوطنيين .. فلما وصلوا فى جنح الظلام الى مواقعه تقهقر أمامهم فرسان المقدمة بقيادة أحمد عبد الغفار وعبد الرحمن حسن .. حتى بلغوا موقع الخائن الثالث على يوسف خنفس فمروا بين عساكره دون مقاومة ... واخذوا الجيش على غرة ، وجنوده رقود ، وأطلقوا نيرانهم من خلف وأمام ..

وتحدث التاريخ عن خيـــانة أولئك الخائنين ... الذين اشتراهم توفيق بفرية الولاء وعصيان أمير المؤمنين ... أو بالمال الحرام – فقد أقطع أحمد أبو سلطان واخوته من العربان خمسة آلاف فدان فى رأس الوادى – ونسى التاريخ أن يتحدث عن خيانة توفيق ... وخيانة السلطان الغافل الذى نصب نفسه أميرا للمؤمنين ، وخيانة فرنسا ، وخيانة الدول الاوروبية « العظمى » التى اشتركت فى مهزلة الاستانة ... وخيانة شركة القناة التى نبتت على أرض مصر كالطفيليات ..

ان شرور العالم كله قد تحالفت ضد البطل المصرى الفلاح أحمد عرابى واخوانه وجنوده البواسل الوافدين من كل قرية فى مصر والسودان .

نهاية بطل :

وكان أحمد عرابى يعود الى القاهرة ظهر يوم الهزيمة – ١٣ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ – على حين كان سفير فرنســـا فى لندن يكشف النقاب عن وجه دولته اذ يهنىء وزير الخارجية الانجليزية بالنصر ..

أما رئيس وزراء فرنســا فكان أكثر صراحة حين قال « ان انتصار الانجليز على العرب فى مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسا فى تونس والجزائر » .

وأفاق احمد عرابى وبقية أصحابه من المحاربين الشرفاء

وتتابعت خطوات الجيش المحتل حتى وصل الى القاهرة . وأسر عرابى وصحبه الأبرار .

وهكذا تمكن الخونة والخائرون من اعتقال الزعماء الوطنيين ضباطا وأعيانا والالقاء بهم فى السجون .

وتألفت محكمة عسكرية « مصرية » برياسة محمد رءوف باشا لمحاكمة الزعماء السبعة بتهمة عصيان الخديو . وهم احمد عرابى وسامى البارودى ومحمود فهمى ويعقوب سامى وعبدالعال حلمى وعلى فهمى وطلبة عصمت . وكذلك حوكم حسن الشريعى وعبد الله فكرى .

وقد استقدم مستر بلنت ، صديق عرابى ونصيره محاميين انجليزيين للدفاع عنه ... ولكن محاكمة البطل المجاهد جرت على نحو صورى .. فاستغرقت يوما واحدا ـ ٣ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ وانتهت بالنطق بالحكم ـ وهو الاعدام مذيلا بأمر الخديو ابدال الاعدام الى النفى المؤبد .

كذلك كانت محاكمة بقية السبعة الزعماء فى ٧ و ١٠ من ديسمبر وقد حكم عليهم بالاعدام ، وتلى مع الحكم أمر خديوى بابداله الى النفى المؤبد .

وفى ١٤ من ديسمبر امر الخديو بمصادرة أملاكهم وأموالهم وحرمانهم من الامتلاك وترتيب معاش بالقدر الضرورى لعيشهم ..

وفى ٢١ من ديسمبر أمر بتجريدهم من الرتب والألقاب ..

وفى ٢٧ من ديسمبر نفذ فيهم الحكم ، فأقلهم قطار خاص الى السويس ثم غادروها فى ٢٨ من ديسمبر على الباخرة الانجليزية مربوط الى جزيرة سيلان التى اختارتها الحكومة الانجليزية منفى لهم .

وانتهت سنة ١٨٨٢ ، الحافلة بالاحداث ، بكارثة الاحتلال البريطانى وضياع أرواح الشهداء .. ورحيل القادة الابطال ..

الحلقة الرابعة

صراع مع الشياطين

النار تحت الرماد

احتفل توفيق ـ فى الاسكندرية ـ بنبأ انتصار الانجليز على الوطنيين المصريين فى التل الكبير ·· وعزفت له موسيقاه ، وحيته الجنود الانجليزية التى مكن لها من رقاب المصريين ·· وتقبل تهانى المارقين ، والاوربيين · واستمع الى هتافهم بحياة ملكة انجلترا ، وقائد قوات الاحتلال ، والدولة المحتلة . ثم بحياته هو أيضا ..

ثم أوفد الى القاهرة محمد سلطان نائبا مفوضا عنه ، فراح يجمع الضباط والجنود والعلماء وخطباء المساجد والاعيان والتجار ، ويزج بهم فى أعماق السجون ·· حتى بلغ عدد المسجونين ثلاثين ألفا أو يزيدون ··

وأخيرا عاد توفيق الى القاهرة بنفسه ، فى ٢٥ من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فسار فى موكب انجليزى الى سراى الاسماعيلية ·· والى يساره نجل ملكة الانجليز ، وأمامه الجنرال ولسلى والمستر مالت ، وخلفه الوزراء من صنائع الطغيان والاستبداد والعبودية ·· وأعضاء الأسرة الخائنة الذليلة ·

ولم يكد المستعمر يثبت أقدامه على الارض الطيبة ، حتى تخلت الدول الاوربية صراحة عن الفريسة لغاصبها ·· بعد أن سيق الوطنيون الى الأسر والسجن ، ونفى الزعماء الى أقاصى الارض ، واختفى الحزب الوطنى من أفق الجهاد الوطنى الى حين ·

وأوفدت الدولة المحتلة لورد دوفرين الى مصر لدراسة الحالة فيها ، وتقديم تقرير عنها لحكومة بلاده ·· فأنزله توفيق فى رأس

التين ثم فى قصر النزهة بشبرا ضيفا على الحكومة « المصرية » ..

وفى سنة ١٨٨٣ بدأ السير ايفلنج بالنج - لورد كرومر فيما بعد - القنصل العام البريطانى ، يصبح حاكما بأمره فى مصر مستندا الى جيش الاحتلال ، والى أوامر حكومته البرقيـة بالزام الحكومة المصرية أن تتبع « المشورة » البريطانية ..

وأملى لورد دوفرين - فى كتابه الى شريف فى ٢٩ من أبريل - نظام الحكم المصرى .. فصدع بالامر دون توان .. وصدر - على هذا الاساس - القانون النظامى فى أول مايو ، بعد يومين اثنين .. بانشاء مجالس مديريات ، ومجلس شورى نواب ، وجمعية عمومية .. وكلها هيئات نيابية صورية لا سلطان لها . ظلت قائمة كالاشباح الى سنة ١٩١٣ ..

واجتاحت الثورة المهدية أرجاء السودان ، وتوالت الهزائم على الجيش التوفيقى فاشترك الانجليز بحفنة من ضباطهم فى محـاربة الزعيم السودانى الثائر حتى هدأت الثورة، فسارعوا يطالبون بعودة الجيش المصرى ليخلو لهم السودان ..

واستعاد شريف بعض ذكريات ماضيه ، فاستقال احتجاجا على طلب الانجليز ، وقال « اذا تركنا السودان فانه لا يتركنا » ..

ولكن الخديو وحكومته - وزارة رياض - أذعنوا لأوامر الانجليز .. ثم أصبحوا جميعا دمى يحركها القنصل البريطانى العام ..

فألغى الجيش المصرى .. وتألف جيش هزيل بقيادة انجليزية وضباط انجليز واستشرى النفوذ البريطانى وتغلغل .. ممثلا فى السردار على رأس الجيش، والمفتش الانجليزى العام على رأس البوليس والمستشار المالى البريطانى فى المالية ، والوكيل البريطـانى لوزارة الاشغال ..

وفي ذيول النفوذ الانجليزى تغلغل النفوذ الاجنبي في حياة البلاد .. واستولى على مرافقها ومقومات حياتها الاقتصادية ..

وهكذا ظلت الحال تتهاوى من حضيض الى حضيض حتى استقالت وزارة رياض في سنة ١٨٩١وتولى الحكم الزائف مصطفى فهمى عميد المستسلمين الخاضعين للنفوذالانجليزى .. فأضيف الى ممثلي النفوذ الانجليزى رئيس الحكومة نفسه . كما أضيف اليهم المستشار القضائى البريطانى الذى عين فى وزارة الحقانية ..

نذر البركان :

وبدأت النار تنفض عنها الرماد . بعد أن كانت تسرى في خفوت وخفاء . وتصاعدت صيحات التبرم بالاحتلال . وبما أخلف من وعود .

ففي ذلك العام - ١٨٩١ - دخل فتى مصرى مدرسة الحقوق، فالتقى بزميل له ... وعقدت بينهما أواصر صداقة ومحبة ..

أما ذلك الشاب ، فكان اسمه مصطفى كامل .. وهو ابن الضابط المهندس المرحوم على محمد .. وأما زميله وصديقه فكان اسمه فؤاد سليم .. وهو ابن المجاهد الوطنى لطيف سليم باشا الذى كان يشارك في حركة خفية مستترة من حركات التحرير .. ويجتمع بالوطنيين الأباة من امثال محمد فريد واخوانه ... رواد التضحية والفداء ..

وانتهت الصداقة بين الطالبين الفتيين ... الى صداقة بين مصطفى كامل ووالده لطيف سليم الذىأخذ بيده وكشف عنعبقريته الحجاب واصبح فيما بعد من أصدق انصاره ومؤيديه ..

وفي سنة ١٨٩٢ بدأ مصطفى كامل يكتب فى الاهرام والمؤيد،

وكان لم يزل في الثامنة عشرة ، ويحمل دعوة الجهاد التي احتبست في الصدور طوال عشر سنوات ..

وفي ذلك العام أيضا توفي توفيق ، رمز المهانة والخيانة ، ومثال الضعف والاستخذاء ... والعزة بالاثم والاستعلاء .. وتولى بعده ابنه عباس الثاني في ظل الاحتلال الناشب كالاخطبوط ... وكان في سن الثامنة عشرة .

وكان توفيق قد استنام في القفص الذهبي الذي وضعه فيه الانجليز .. وقنع بأحلامه الكاذبة من اذلال الشعب الأبي ، وبالفتات الذي يلتقطه من تحت مائدة النفوذ الانجليزي الممدود .. ولكن عباسا طمع في مزيد من ذلك النفوذ .. ونازعته الآمال في أن يشارك المعتمد البريطاني ما كان يمارس من حكم مطلق .. ونازعه الجشع — وهو من أقطابه — أن يبتز من دماء المصريين قدرا أوفى مما ابتزه أبوه .. أو مما قدمه المستعمر لأبيه المستكين .. فبدأ يتمسح في الحركة الوطنية . ويتشبث بأذيالها ..

وفي السنة ذاتها فتحت الحركة الوطنية صدرها لعباس .. وغفر التاريخ سماحتها .. لانها كانت تنصره على السلطة المعتدية الغاصبة ..

واجتمعت الصفوة الطاهرة والتفت حول لطيف سليم — وفي الطليعة منها محمد فريد ومصطفى كامل — واستعاد الحزب الوطني وجوده من جديد .. ولكن في حذر وخفاء ..

وفي سنة ١٨٩٤ حصل مصطفى كامل على شهادة الحقوق من احدى جامعات فرنسا ، وبدأ يكرس جهده وحيويته وشبابه للجهاد الوطني ، والدفاع عن القضية الكبرى .

وفي سنة ١٨٩٥ اتسع نطاق دعوته ، فتعدى المقالات الى خطب وطنية في جولاته الاقليمية .. ومرافعات حارة في المحافل الاوروبية

انبعاث الشعلة :

وبدأت سلطات الاحتلال ، وعوامل الخيانة ، وبقايا الجبروت المنهار ، تواجه الوعي الجديد ·· وتحاول أن تحجب الشعلة عن الأبصار والقلوب ·· وتتخذ الأهبة لضرباتها الطائشة ·· فأنشئت المحكمة المخصوصة لمحاكمة من يتهمون بالاعتداء على جنود الاحتلال وضباطه ·· وتربص المتربصون للبطش بالأحرار ··

ولكن النور اخترق الحجب ··· وفي سنة ١٨٩٦ عقدت الزعامة الشعبية علانية وعلى رءوس الاشهاد ، لمصطفى كامل ·· ومضت الحركة الوطنية في سبيلها لا تشوبها سوى شائبة اتصالها بعباس الثاني وتحالفها معه وقبولها معونته ..

على أن سنة ١٨٩٨ قد برأتها من هذه الوصمة ··· عقب حتفالها بعيد جلوس الخديو ومضيها في تأييده الى آخر الشوط ·

ذلك أن حادثة فاشودة قد فتت في عضد الخديو فاستكان ، وباعد اليأس بينه وبين المجاهدين ··

وحادثة فاشودة تلخص في أن الفرنسيين سعوا الى مناهضة الاستعمار الانجليزي ومزاحمته ، فاحتلوا موقع فاشودة باعتباره مفتاح النيل الأعلى ··· فسارع سردار الجيش المصري « كتشنر » على رأس قوة مصرية ، فطرد الحامية الفرنسية وأجلاها ··· دفاعا عن « أملاك سمو الخديو » ··· وتراجعت فرنسا سريعا عن سياسة المناهضة···ودب اليأس في نفوس الخديو وأعوانه من المستضعفين فتخاذلوا واستكانوا ···

وهكذا تخلصت الحركة الوطنية من « تأييد » عباس ومضت في سبيلها وقد تعلمت معنى «الاعتماد على النفس» وجعلته من أسس دعوتها ··

وأكرهت حكومة الخديو على توقيع اتفاقية السودان ـ في سنة ١٨٩٩ ـ التي أشركت الانجليز في ادارته ٠٠٠

وتابعت الحركة سبيل الاعتماد على النفس، فدعت الى التعليم القومي ، وأنشأت المدارس ، وتولى زعيمها مصطفى كامل ادارة مدرسة بنفسه ٠٠٠ واضطلعت بخلق النهضة التعاونية ٠٠٠ وراحت تعمل جاهدة على بث الروح الوطنية الواعية وبناء الامة القادرة على متابعة النضال ٠

وفي أول عام ١٩٠٠ أصبح للوطن صحيفته « اللواء » التي تولى تحريرها مع مصطفى كامل كل من محمد فريد، وأحمد شوقي، واسماعيل صبري وويصا واصف ، وفؤاد سليم ، وغيرهم من رواد الوطنية وحملة شعلتها الوهاجة ٠٠٠

وفي عام ١٩٠١ عاد أحمد عرابي من منفاه ٠٠٠ بعد أن تنكرت له السراى ، والحكومة ، وصانعه الانجليز وأكرموه في غربته ، فحملته مرارة النكران ومصانعة الانجليز ، وتقدم السن ومكابدة الأيام ـ على أن يعتزل معترك الجهاد ، وهكذا خفت صوت البطل المجاهد قبل أن تمتد اليه يد الموت بسنوات عشر ٠٠٠

وفي سنة ١٩٠٢ احتفلت الحركة الوطنية ـ وا أسفاه ـ بالعيد المئيبي لمحمد على ، مؤثرة أن تغفر جرائم البيت الغاشم في حربها للاستعمار ٠٠٠

ولكن ذلك لم يمنع عباسا من هوانه وترديه ٠٠٠ ففي سنة ١٩٠٤ عندما عقد الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا الذى أعلنت فيه بريطانيا أن ليس في نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر وأفصحت فرنسا عن تعهدها بألا تعرقل عمل الانجليز في هذه البلاد، لا بطلب تحديد أجل الاحتلال ولا بأية صورة أخرى ، مقابل اطلاق يدها في مراكش ٠ عندئذ ٠٠ ترامى عباس تحت أقدام الانجليز ٠٠ فحضر ـ

لأول مرة ـ العرض السنوى للجيش البريطانى احتفالا بعيد ميلاد ادوارد السابع ، ووقف تحت العلم البريطانى يستظل بظله فى ساحة عابدين ، وأعلن مصطفى كامل براءته من عباس .. ومضت الشعلة المقدسة تجاهد الاستعمار والطغيان معا ..

واعتزل محمد فريد المحاماة وتفرغ للقضية الكبرى ... وكان من قبل قد ترك وظيفته فى سبيلها ..

وفى سنة ١٩٠٥ رفع كرومر عن وجهه النقاب ، وراح يزور المديريات ويخطب فيها عن أعمال الحكومة ، وسط مظاهر لم يحظ بها عباس أو وزراؤه ... الخانعون .

وعين ياور انجليزى للخديو ..

وبدأت الدعوة الوطنية للنهوض الاقتصادى ... وبدأ محمد طلعت حرب أولى خطواته فى الميدان الاقتصادى ، مؤيدا من صديقه مصطفى كامل ..

وحشية الطغيان :

وفى سنة ١٩٠٦ وقعت حادثة دنشواى ، فألهبت الروح الوطنى وأججته ، ومكنت لمصطفى كامل من عنق كرومر الطاغية ..

فقد ذهب بعض ضباط الاحتلال يصطادون ... فلم يزعهم وازع عن اصطياد حمام الاهالى من أجرانهم فى القرية التعسة « دنشواى » .

وطاشت طلقة نارية فأصابت احدى القرويات وأشعلت النار فى جرن زوجها ..

وتجمع الاهالى يحاولون منع الضباط الانجليز .. فهب الخفراء لانقاذ أولئك المعتدين ... ولكن عدوانهم اتجه الى منقذيهم فأصابوا

بعضهم برصاص بنادقهم .. ثم فروا من القرية فى وقدة الظهيرة .

وأصيب أحدهم فى طريقه بضربة شمس ، فعجز عن متابعة السير ، وتركه زميله الجبان ومضى الى كتيبته ..

وجاء بعض جنود الكتيبة لانقاذ ضابطهم المصاب فوجدوه فى العراء قرب « سرسنا » وأحد الفلاحين يحنوعليه ويسقيه ويبلل وجهه بالماء .. فكافأوه بضربه ببنادقهم حتى مات ..

وعقدت المحكمة المخصوصة لمحاكمة المجنى عليهم من أهالى دنشواى .. لان ذلك الضابط مات بضربة الشمس ... فقضت على ٤ بالاعدام وعلى اثنين بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وعلى ١٥ بالسجن والجلد مددا تتراوح بين ١٥ سنة وسنة واحدة ..

ونفذ حكم الاعدام والجلد فى مكان الحادث ... على ملأ من أهالى دنشواى .

وكان الزعيم الشاب مصطفى كامل يواصل دفاعه عن قضية بلاده فى المحافل الاوروبية ... فأطلع العالم كله على هذه الصورة المنكرة من وحشية الطغيان ... بل واجه الشعب الانجليزى ذاته بوحشية الاستعمار الانجليزى والحكم المطلق فى ظله الأسود ..

واشتد ساعد الحركة فى سنة ١٩٠٧ ... فتألف الحزب الوطنى جهرة ، وعقد لواء زعامته لمصطفى كامل ..

واستقال لوردكرومر من منصبه بعد أن خجل الشرف البريطانى نفسه من فعلته النكراء ..

وولدت لجريدة اللواء شقيقتان بالفرنسية والانجليزية ..

وأفرج عن مسجونى دنشواى ..

وولدت الدعوة لانشـــاء الجامعة المصرية ... وكانت نواة

مواردها تلك الاكتتابات التى افتتحها وجمعها محمد فريد ..

وأمعن عباس فى الهوان فراح يلتمس التعاون مع المعتمد الجديد ليقاسمه سلطته المطلقة ... ويحرق البخور للاستعمار ، ليجمع بقايا النفوذ من تحت أقدامه ..

وعين سعد زغلول وزيرا للمعارف ، وكان الى ذلك الحين ممالئا للانجليز ، أو متهما بذلك ، باعتبار ان حماه ـ مصطفى فهمى ـ من صنائعهم ، وأن أخاه فتحى زغلول من سفاحى دنشواى .

وحلت سنة ١٩٠٨ والزعيم الوطنى مصطفى كامل يعانى من آثار جهاده المتصل ... فى أكثر من ميدان ... فلم يقو عوده الفتى على مغالبة الجهد والنصب ... ومات فى الرابعة والثلاثين .. فى الحادى عشر من فبراير من ذلك العام ..

صراع الشياطين :

وتولى محمد فريد قيادة الثورة ، فجابه الاحتلال وأعوانه بدعوة الجلاء ... وجابه الطغيان وأدواته بالمطالبة بالدستور ... وشن على الاستعمار ـ فى عواصم الدول المستعمرة ـ حملة صادقة لا تفتر ... ومضى يصارع الشياطين وينازلهم بسلاح ايمانه ، وشجاعته ، وفدائه ..

وفى سنة ١٩٠٩ استطاع بهذا السلاح أن يحبط مؤامرة دنيئة عقدت فى طى الخفاء بين المستشار المالى الانجليزى وشركة القناة لمد أجل الامتياز أربعين عاما ..

وواصل البطل جهاده الذى بدأه مع صديقه وزميله مصطفى كامل منذ آخى بينهما لطيف سليم ، فاشترك فى مؤتمر السلام فى استوكهلم ، وعقد المؤتمر الوطنى فى بروكسل ... وعاد الى وطنه

يتابع رسالة البناء .. فضاق به الاستعمار وناصبه الطغيان والعداء .

وقدم محمد فريد للمحاكمة في سنة ١٩١١ بتهمة صحفية مفتراة ، وحكم عليه بالحبس ستة أشهر ، فدخل السجن مجاهدا صلب العود وخرج منه أصلب عودا وأشد قناة ..

وانبرى يشهر سلاح الحق المقدس فى كل مكان ... ويدعو ممثلى شعوب العالم قاطبة ليبهر أنظارهم بنور ذلك الحق ، ويكشف لأبصارهم عن تلك المآسى التى ترزح مصر تحت أثقالها ..

وفى سنة ١٩١٢ عقد المؤتمر الوطنى... فحمل على الانجليز، وعلى الحكم المطلق ممثلا فى عباس وحكومته ... فنفاه الانجليز وعباس الى أوروبا ..

ولكن الزعيم المنفى ملأ الصحف الاوروبية بصيحات الحقوق المصرية المغصوبة ... وهز أعواد المنابر ... ودوى صوته فى المجتمعات والمحافل .. فى انجلترا ، وتركيا ، وفرنسا ، وسويسرا .. وفى كل قطر أوروبى ، يخاطب ضمائر الشعوب ، ويفضح التواء الساسة ومظالم الحكام .. ونوازع الاستعمار والبغى والعدوان ..

واشترك فى مؤتمرات السلام فى جنيف سنة ١٩١٢ وفى لاهاى سنة ١٩١٣ ... وتابع دعوة المطالبة بالدستور حتى اجترأ عباس وحكومته على محاكمته مرة ثانية بتهمة هذه الدعوة .. بل والحكم عليه بالحبس سنة ، وعلى اثنين من زملائه بالحبس ثلاثة أشهر ..

ومنذ ابتعد محمد فريد عن أرض الوطن ، منفيا ، مضطهدا ، مظلوما .. اتخذت دعوته فى مصر صورة أعمق جذورا وأبعد غورا ... فاستوى الشباب فى كل أرجاء البلاد يدين بها ويمزجها بدمه

... وبدأت ـ تحت سطوة البغي والعدوان ـ تكتلاته السرية التى الهبت ظهور المحتلين والخونة بالسياط بعد حين ..

وفى سنة ١٩١٤ ألغيت المجالس النيابيــة السابقة وأنشئت الجمعية التشريعية ... وقامت الحرب العالمية الاولى بين النمسا وألمانيا من ناحية .. وبين روسيا وفرنســا وانجلترا فى الجانب الآخر ..

وسارعت الحكومة « المصرية » بتأثير الاحتــلال ، الى تخويل الدولة المحتلة حقوق الحرب فى كافة الموانىء المصرية وجميع ارجاء البلاد ... والى الوقوف من محاربيها موقف العــداء ... والى اصدار قانون منع التجمهر .

وأعلن سير جون مكسويل ـ قائد جيوش الاحتلال ـ الأحكام العرفية فى مصر بمــوجب قــرار أصــدره ، وفرضت الرقابة . وسيطرت السلطة العسكرية البريطانية على أداة الحكم ..

الحماية بعد الاحتلال :

وقامت الحرب بين انجلترا وتركيا ... فأعلنت بريطانيــا الحماية على مصر ، وزوال السيادة التركية ..

كان ذلك فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ ..

وفى اليوم التالى قررت انجلترا خلع عباس الثــانى ، وكان غائبا عن مصر ، وادعت أن الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللخديو السابق قد سقطت عنهما وآلت الى ملك الانجليز . وأن هذه الحقوق ، وكذلك الحقوق التى استعملتها فى سنى « الاصــلاح » ـ أى فى سنوات الاحتلال الثلاثين ـ تعتبر وديعة تحت يدها لسكان مصر ..

ثم عرضت على حسين كامل ، عم عباس الثانى ، أن يخلف ابن

أخيه بلقب « سلطان مصر » فى ظل الحماية ، مغرية اياه بحقه فى منح الرتب والنياشين ، وان استبقت فى يديها ـ أو فى يدى معتمدها ـ جميع الشئون الداخلية ... بل وشئون العلاقات الخارجية بين مصر وغيرها من الدول ..

وتألفت وزارة حسين رشدى من جديد ، بدون وزير للخارجية، اذ ألغيت تلك الوزارة فى ظل الحماية ..

ولم تحرك الجمعية التشريعية ساكنا ، بل ان وكيلها سعد زغلول كان فى مقدمة المستقبلين لأول مندوب سام بريطانى والمرحبين به ..

وهوت أسعار القطن الى الحضيض ... وعجز الزراع عن الوفاء بالتزاماتهم . وعن سداد الاموال الاميرية ، واضطروا الى تقديم مصوغاتهم وفاء لتلك الاموال ... واتسع تطاق نزع ملكية الاراضى الزراعية لسداد ديون المرابين الاجانب ، فى الوقت الذى أصدرت فيه الحكومة موراتوريوم لحماية المدينين بديون تجارية ..

وحلت سنة ١٩١٥ والسخط يملك نفوس المصريين ، ومراجل الغضب تغلى فى صدورهم .. فراح السلطان الخاضع المستسلم يسكن ثائرة الثائرين بالرتب والالقاب ..

وازدادت ثورة النفوس بدل أن تنطفىء . فغضبت السلطة العرفية على الحزب الوطنى ورجاله ، والقت بهم فى المعتقلات والسجون ... أو شردتهم منفيين فى آفاق الارض ..

نيران الغضب :

ونهضت تكتلات الشباب بأعباء المقاومة ... على صورة فردية .. متفرقة .. مباغتة ..

فى ١٨ من فبراير . وهو اليوم الذى كان السلطان قد حدده

ليزور مدرسة الحقوق تغيب الطلبة عن معهـــدهم ، وزار السلطان جدرانا خاوية الا من الناظر الانجليزى والمدرسين ..

وكان احساسه واحساس حكومته مرهفا .. أو مظلما، ففصلت الحكومة ٨٤ طالبا ، وحرمت ١٣ من الامتحـــان .. و ١٨ آخرين حرمتهم مع وقف التنفيذ ..

وفى ٨ من أبريل حاول محمد خليل ، وهو تاجر شـــاب ، أن يجلو عن أحاسيس الطغاة تلك الظلمة ، فأطلق النار على السلطان حسين أثناء مرور ركبه فى شارع عابدين ... ولكن الرصاصـــة أخطأته وحوكم التاجر الشاب أمام مجلس عسكرى قضى باعدامه.. ونفذ الحكم فى ٢٤ من أبريل ..

وفى ٩ من يولية تكررت المحاولة فى الاسكندرية ... فألقيت قنبلة ـ لم تنفجر ـ على موكب السلطان ... وحكم على اثنين من المتهمين بالاعدام ثم خفف الحكم الى الاشغال الشاقة المؤبدة ..

وازداد احساس الطغاة ارهافا وظلاما ..

وعطلت الجمعية التشريعية فى ١٨ من أكتوبر لأجل .. ولكنها لم تقم لها بعد قائمة ..

وانطلقت السلطة العسكرية الانجليزية تجند العمال المصريين وتجمع الرديف قسرا ، وتلقى بأولئك وهؤلاء فى أتون الارهـــاق والقسوة والاهمال .. كما راحت تنتهب كل ما يقع تحت بصرها وبصر عملائها من مواد ومؤن ..

ولم تقنع لندن ... فعينت سير ونجت باشا مندوبا سـاميا لكيلا يدع للسلطان وحكومته أى ظل من النفوذ ..

وصدر الاعلان بالترخيص للبنك الاهلى فى تغطية مايصـــدره من ورق النقد المصرى بصكوك على الخزانة البريطانية بدلا من غطاء

الذهب ، وهو اعلان سنة ١٩١٦ المشئوم الذى كان بداية التبعية المالية التى أرهقت كاهل الاقتصاد المصرى فى الحربين العالميتين وفى أعقابهما ··· والتى استلبت بريطانيا فى ظلها مئات الملايين من الجنيهات خلسة من أقواتنا ورءوس أموالنا ، وجهودنا ، وطاقتنا ··

وفى سنة ١٩١٧ كان رجال الحركة الوطنية فى المعتقلات والسجون والمنفى ··· وكان الميدان الداخلى خاليا للقوة الغاشمة الباطشة ··· وكانت دعوة الجهاد تتردد فى المنفى البعيد على لسان زعيم المجاهدين محمد فريد ·· فى المؤتمر الاشتراكى باستوكهلم وفى مذكرته الى الدول المتحاربة والمحايدة ··

سلطان جديد :

وفى شهر أكتوبر مات السلطان حسين كامل···ورفض ابنه كمال الدين أن يجلس مكانة ... فبعث المندوب السامى – فى ٩ من أكتوبر – الى أحمد فؤاد بن اسماعيل بتبليغ بريطانى يقول فيه ان وزير خارجية بريطانيا أمره بأن يعرض عليه « العرش » على أن يكون لورثته من بعده ، حسب النظام الذى سيوضع بالاتفاق بين الحكومة البريطانية وبينه ··

وتلقف فؤاد « العرش » بين يديه ··· وعهد الى حسين رشدى بتأليف الوزارة ، مثبتا فى كتاب التكليف قوله :

« وقد تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة على أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا طبقا للنظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بيننا وبينها » .

وفى سنة ١٩١٨ والحقوق الوطنية تتكاثر عليها السهام الغادرة ، برئت الحركة الوطنية من آخر شوائبها ··· وهى شائبة

التبعية العثمانية ، فقـــدم محمد فريد تقريره الى مؤتمر نرست ليتوفسك مطالبا بالخروج بالمسألة المصرية عن النطاق العثمانى ..

ولكن السلطان الجديد ـ فؤاد ـ كان قد أوغل بها فى النطاق الانجليزى ، فأصدر مرسوما يحث المصريين على التطوع فى خــدمة السلطة العسكرية البريطانية . وجعل من هذا التطوع حشدا اجباريا وسوقا للأهالى كالانعام ليلقوا العنت والارهاق وامتهـــان الكرامة حتى بلغ عدد المسوقين أكثر من مليون ..

كذلك ذلل فؤاد لصانعيه الانجليز سبيل مصادرة الحاصلات والمؤن والمواشى والدواب وكل ما يمدون اليه أبصارهم ..

وأخيرا عقدمجلس الوزراء برياسته فى ٩ من مارس واستصدر قراره بالتنازل للانجليز عن ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات « اعترافا بجميل بريطانيا التى حمت البلاد من خطر الغارات » .

ولكن تلك المنحة السخية لم تكن لتقاس بالغرم الفادح ، الذى حمله الزراع فى ذلك العام ، نتيجة الاحتكارالبريطانى للقطن ، وهو غرم قدر بأكثر من ثلاثين مليونا من الجنيهات ..

أحلام السلم :

وفى ٣١ من أكتوبر عام ١٩١٨ عقدت الهدنة ..

وفى نوفمبر صرحت انجلترا وفرنســـا بأنهما تنويان تحرير الشعوب التى أنقذت من الحكم العثمانى تحريرا نهائيا .

كذلك أعلن الرئيس الامريكى ويلسون مبـادئه المشهورة .. وبدأت بريطانيا «تفى» بعهودها ، فتقـدم سـير وليم برونييت ـ مستشار دار الحماية ـ بمشروع القانون النظامى ، الذى تضـــمن انشاء مجلس نواب مصرى لا حول له ولا قوة ، ومجلس شيوخ تتركز

فيه السلطة التشريعية ويشكل من غالبية من الاجانب وأقلية من المصريين ·

وحمل حسين رشدى على المشروع الانجليزى ..

ثم انتهت الحرب فى الشهر ذاته ـ نوفمبر ـ والزعيم محمد فريد مبعد عن أرض الوطن ·

وفى غيبة ذلك المجاهد الفذ تقدم وكيل الجمعية التشريعية المعطلة ، سعد زغلول ، يطلب الى المندوب السامى سير رجنلد ونجت تحديد موعد لمقابلته مع زميليه عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ، للتحدث فى شأن الترخيص لهم بالسفر الى لندن ··

وكان حسين رشدى يناصرهم ويؤيدهم ··

وحدد يوم ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨ موعـــدا للمقابلة ·· فتحدث سعد عن رفع الأحـكام العرفية والغـاء الرقابة ·· وطالب شعراوى أن تكون علاقة مصر مع بريطانيا « صـــداقة الحر للحر » وجاهر عبد العزيز فهمى بطلب الاســـتقلال التام ، وبالدفاع عن محمد فريد ·

وتطوع سعد بالتعهد باعطاء بريطانيا الضمانات الخاصة بقناة السويس باعتبارها طريق الانجليز الى الهند ··

وفى اليوم نفسه كتب حسين رشدى الى السلطان يستأذن فى السفر الى لندن وبصحبته عدلى يكن ··· وقابل المندوب الســامى لهذا الغرض ·

وعندما لمس رشدى من المندوب السامى دهشــته من أن ثلاثة رجال يتحدثون باسم أمة بأسرها ، شجع أولئك الثـلاثة على تأليف الوفد وعلى جمع التوكيلات له من الأمة ..

ومن المنفى البعيـــد فى أوروبا ، جاء صوت محمد فريد مؤيدا

الوفد ، ضاربا أعلى الامثلة على انكارالذات فى سبيل الوحدة القومية والاهداف الوطنية العليا ..

وانتقل محمد فريد الى سويسرا ... ولحق به المشردون فى جهات الارض .. وواصل الوطنيون جهودهم خارج مصر .. واندفع الوطنيون فى مصر فى سبيلهم ، يدفعون أمامهم سعدا واخوانه ..

وفى ٢٠ من نوفمبر طلب سعد من قيـادة الجيش الانجليزى جوازات سفر له ولاخوانه الى انجلترا .. فرفضت القيـــادة « فى الوقت الحاضر » ..

وفى ٢٩ من نوفمبر كتب سعد للمندوب السامى كى يتوسط لدى القيادة فى أمر الجوازات .. فجاءه الرد ـ من نائب السكرتير الخاص للمندوب ـ برفض الترخيص بالسفر .. وبأن يقدم الوفد مقترجاته الى المندوب السامى على ألا تخرج عن الخطة التى رسمتها بريطانيا من قبل فى نطاق الحماية ..

وفى ٣ من ديسمبر كتب سعد للمنـــدوب مرة أخرى ... ولرئيس الوزراء حسين رشدى وأبرق الى رئيس الحكومة البريطانية ... لكى يذهب هو وزملاؤه الى لندن ..

مولد زعيم :

وحلت سنة ١٩١٩... ومحمد فريد واخوانه فى أوروبا يوالون جهادهم .

أما الحركة الوطنية فى مصر فقد اتسع مداها ... وأصــاخ الشعب الى دعوة الوفد .. ثم اندفع واياه فى سبيل النضال ..

واستدعى المندوب السامى .. ومنعت السلطة العســـكرية الاجتماعات الوطنية .. وولد الزعيم « سعد زغلول » .

وسعد زغلول فلاح مصري .. من أبناء الأزهر – ومن رواد الثقافة الاوروبية .. ومن عباقرة القادة الشعبيين ... ولكن معدنه الاصيل كان قد علاه بعض الصدأ – في الرحاب الانجليزي – وعراء الالتواء في اسار السياسة – فلماتفتحت عيناه على البغي الانجليزي وتحرر من اسار السياسة المتخاذلة التى كان حموه مصطفى فهمي من عبيدها ، استطاع أن يحتل مكانه فى المعترك الشعبي المصرى .. وأن يعرف فى نفسه الفلاح الوطنى ، القادر على النضال .. الذي اكتملت له الأداة لقيادة الجماهير ..

وكان مولد « الزعيم » فى أحضان الثورة ... وفى ٧ من فبراير سنة ١٩١٩ فى دار جمعية الاقتصاد والتشريع ..

كان أحد المستشارين القانونيين الانجليز يلقى محاضرة فى تلك الدار .. فلما انتهى من محاضرته نهض سعد زغلول للتعقيب عليها ..

وكان تعقيبه خطابا وطنيا هو أول دلائل عبقريته الخطابية الفياضة .. وباللغة العربية ، لاول مرة فى تاريخ تلك الجمعية التى لم تتردد من فوق منبرها سوى اللغات الاوروبية ..

وسرى سحر سعد زغلول فى أرجاء الوادى مسرى البرق ..

وسارعت الحكومة البريطانية تقبل زيارة رشدى وعدلى ..

وأبى حسين رشدى الا السماح للوفد أيضا ..

ورفض الانجليز ، فأصر رشدى على استقالته وتمسك بها تضامنا مع الوفد ... فقبلها فؤاد فى أول مارس ..

ومضى فؤاد فى تخاذله ... ومضت السلطة البريطانية فى غلوائها .. فاعترض الوفد صراحة على مسلك السلطان ... واحتج لدى ممثلى الدول على السلطة المعتدية ..

الثورة الكبرى :

وفى ٨ من مارس سنة ١٩١٩ اعتقل الانجليز سعدا وأصحابه ونفوهم الى مالطة ، فتطاير شرر الغضب فى كل مدينة وقرية ..

وبدأت الثورة الكبرى فى ٩ من مارس بمظاهرة طلبة الحقوق التى انضم اليها طلبة المعاهد العليا ... والتى قبض فيها على ٣٠٠ طالب أودعوا المحافظة وأمضوا فيها ليلهم .

وفى ١٠ من مارس قام طلبة الازهر والمدارس الثانوية يشاركون زملاءهم ويفكون اسار المقبوض عليهم ..

والتهبت المدينة كلها ... واستشهد رجل وصبى مجهولان كانا أول شهداء الثورة الكبرى ...

وبدأت الثورة فى الصعيد بمدينتى المنيا وأسيوط ..

وفى ١١ من مارس اتسع مدى الاضراب ، فتوقفت المواصلات فى العاصمة وأصدرت السلطة البريطانية أمرها بمنع المظاهرات ، وبدأت اعتداءاتها المسلحة على المتظاهرين العزل ، فوقع ستة من الشهداء و ٣١ من الجرحى .. وأعلن المحامون الاهليون عن غضبتهم فأضربوا مساهمة منهم فى ثورة الامة ...

وفى ١٢ من مارس استمر الاضراب والاحتشاد فى جميع أرجاء المدينة .. وأسقط رصاص الانجليز الرعيل الاول من شهداء الازهر وجرحاه ... واتسعت ثورة الاقاليم ، فهبت الاسكندرية فى وجه العدوان الانجليزى تساهم بقتلاها وجرحاها فى الحرب المقدسة بين الغاصب المسلح والعزل الثائرين ... وانتفضت طنطا فسقط من بينها ١٦ شهيدا و ٤٩ جريحا .. وبركة السبع ... فبذل شهداؤها أرواحهم ... وبذل جرحاها دماءهم .

وفى ١٤ من مارس تردى الانجليز فى الدرك الأسفل. فأطلقوا

رصاص مدافعهم الرشاشة على وفود الخارجين من المسجد الحسينى بعد صلاة الجمعة فقتلوا منهم ١٢ وجرحوا ٢٤ ..

وقامت مظاهرات غاضبة عزلاء فى وجه العـــدوان المسـلح فاستشهد من أفرادها ١٣ منهم احدى السيدات .. وجرح ٢٧ ..

وتساقط الضحايا فى الاسكندرية وفى قليوب وطوخ وقها..

كذلك هبت الزقازيق وغيرها من المدن والقرى .

وفى ١٥ من مارس أضرب المحامون الشرعيون ، وعمال العنابر

وبدأت ثورة الفيوم .. كما ثارت المحلة الكبرى ..

وفى ١٦ من مارس انبعثت من الازهر ـ بعد تعاقب الخطبـاء على منابره ـ ثورة القاهرة الكبرى .. وراح الثوار ينصبون المتاريس ويحفرون الخنادق لعرقلة الدوريات المسلحة ، ويقتحمون خطوط النار .. وقامت مظاهرة السيدات للاحتجاج لدى ممثلى الدول .. وقطعت المواصلات الحديدية والبرقية والتليفونية بين العاصـــمة والوجهين البحرى والقبلى ..

واستشهد فى منيا القمح ٣٠ وجرح ١٩ ..

وفى ١٧ من مارس نهضت القاهرة مند الشروق كتلة ثائره تتأجج .

وثارت دمنهور ورشيد ..

وفى ١٨ من مارس واصلت القـاهرة عضبتها ... وبدأت المذابح الوحشية فى بولاق وفى كل أرجاء المدينة .. حتى روى الدم الوطنى المسفوك كل أحيائها ..

وعمت الثورة أرجاء البحيرة والغربية والمنوفية والدقهلية .. فتساقط الشهداء والجرحى فى المنصورة .. وكفر الشيخ ..

وقامت المظاهرات فى دسوق وسمنود وزفتى وشبين الكوم ..

وقتل الثوار فى ديروط ثمانية من الضباط الانجليز فى قطار السكة الحديدية ..

وفى ١٩ من مارس توقفت ثورة الفيوم بعد مذبحة وحشية سقط فيها من الوطنيين ٤٠٠ من الشهداء والجرحى ..

وفى ٢٠ من مارس وجه الانجليز انذارا بحرق المدن والقرى ، غير مكتفين بسيول القذائف التى أمطروا بها العزل الثائرين ..

ومنعوا التجول ليلا ..

ونشروا حملاتهم المسلحة فى كل صوب ..

فاشتعل لهب الثورة على طول الوادى ... وقامت المظاهرة الثانية للسيدات فى القاهرة ..

وهرب الجنود البريطانيون من وجوه التجمعات المنظمة ليعتدوا على الآمنين فى ديارهم ومجالات رزقهم ..

وفى ٢١ من مارس قامت الثورة فى بورسعيد ..

وفى ٢٣ من مارس ثارت ميت القرشى ، فقصدها قطار بريطانى مسلح ليحصد أرواح الثوار بمدافعه الرشاشة .. حتى استشهد فيها أكثر من ١٠٠ وجرح المئات ..

وبدأت الثورة المسلحة فى أسيوط التى استمرت حتى يوم ٢٥ من مارس ..

وفى ٢٤ من مارس أصدر العلماء والباشاوات وأعضاء الوفد الباقون فى مصر بيانات لتهدئة الحالة .. فى حين كان لورد كيرزون يهاجم الثوار المصريين ـ فى مجلس اللوردات ـ ويتجنى على الحقوق المصرية والكرامة الوطنية ...

وجه جديد :

وفى ٢٥ من مارس وصل اللورد اللنبى الذى عينته الحكومة البريطانية مندوبا ساميا لقمع الثورة ومنحته كل السلطات العسكرية والمدنية .. فسارع يجتمع بحسين رشدى وأعضاء وزارته المستقيلة وبأعضاء الوفد الباقين فى مصر ..

ولكن الثورة استمرت ..

ففى ٢٧ من مارس ثارت تفهنا الاشراف ..

وفى ٢٨ من مارس ثارت دنديط ..

وفى أول ابريل احتج الموظفون على خطاب لورد كيرزون فى مجلس اللوردات ثم أضربوا فى اليوم التالى ثلاثة أيام ولكن اضرابهم امتد حتى أفرج عن سعد وأصحابه ..

وحاول الانجليز اغلاق الازهر فرفض شيخه محمد أبو الفضل الجيزاوى .

وفى ٣ من أبريل أضربت القاهرة كلها بجميع طوائفها وهيئاتها مشاركة للموظفين فى احتجاجهم ... فانتشرت الدوريات الانجليزية فى كل مكان تطلق النار وتزهق الارواح ..

وفى ٥ من أبريل انبعثت التنظيمات الوطنية من مسجد ابن طولون بدلا من الازهر .. وقامت المدينة الجريحة تواصل جهادها المستميت ..

وقام الانجليز على مجازرهم الوحشية فى العاصمة والجيزة والعزيزية والبدرشين ونزلة الشوبك والشبانات مركز الزقازيق ، وصفط الملوك ..

وبدلا من أن يرضخ الشعب الثائر حيال الفظائع الوحشية ،

تأججت شعلة الفداء فى البـلاد قاطبة ٠٠ وسارت الحشود تسعى الى الموت وتناهض القوات المعتدية بالسواعد المجردة من السلاح ٠٠

وأذهلت المقاومة البـــاهرة اللنبى فأوحى الى فؤاد أن يذيع منشورا يتملق فيه الشعب ويترضاه ... فرضخ السلطان وأذاع منشوره فى ٦ من أبريل ٠٠

وفى ٧ من أبريل أعلن اللنبى الافراج عن سـعد وصـحبه والسماح لمن يشاء بالسفر الى أوروبا ٠٠

وفى ٨ من أبريل قامت مظاهرات الابتهاج فى كافة الارجاء ٠٠ ولكن الانجليز اعتدوا على المتظاهرين ٠٠

وأعلن اللنبى عن أسفه ٠٠ فرفض الوطنيون الثوار وتابعوا ثورتهم حتى بعد أن تألفت وزارة حسين رشدى فى ٩ من أبريل ٠٠

وعادت الاعتداءات الانجليزية فى القـاهرة والاسكندرية ٠٠ وفى ١٠ من أبريل واصلت العاصمة كفاحها ولم تهدأ ثائرتها منـذ يوم ٨ من أبريل حتى يوم ١١ منه ٠٠ وفقدت فى هذه الايام الثلاثة أكثر من ١٠٠ شهيد وجريح ٠٠

وفى ١٢ من أبريل ــ وكان الوفد قـد سـافر الى باريس ــ أضرب الموظفـون اضرابا متصلا حتى يتم الاعتراف بالوفد رسميا وتعلن وزارة رشدى أن تأليفها ليس معناه الاعتراف بالحماية ، وتلغى الاحكام العرفية ، ويسحب الجنود البريطانيون المسلحون ٠٠

وفى ١٦ من أبريل أضربت البـلاد كلها اضرابا عاما تأييدا لمطالب الموظفين ٠٠

وفى ٢١ من أبريل اسـتقالت وزارة رشـدى ٠٠ فقبلت استقالتها فى ٢٢ من أبريل ٠٠ ووجه اللنبى انذارا الى الموظفين ٠٠

ثم اعترف الرئيس الامريكي ويلسن ـ صاحب المبادىء الزائفة ـ بالحماية الانجليزية على مصر ..

وأحجم السياسيون المصريون عن الاشتراك في الوزارة فمنح وكلاء الوزارات سلطة الوزراء .

واستمرت المظاهرات .. واستمرت وسائل القمع والتفريق .

وفي ٧ من مايو اعترف مؤتمر الصلح أيضا بالحماية ..

وفي ٢١ من مايو ـ ومعاول اليأس نفرى الصدور ـ اجبر محمد سعيد على تأليف الوزارة .. فقام الشعب في وجهه أعنف قومة ..

ووسط ذلك اللهب .. وعلى دوى الرصاص الآثم يخرم صدور الوطنيين .. وسهام الغدر الدولى تصيب الحقوق الوطنية في الصميم .. والدماء الزكية تروى أرض الوطن الجريح ، احتفل فؤاد في ٢٤ من أبريل بزفافه على نازلى .

سياسة التفريق :

وانهارت حصون العدوان حيال الثورة الجامحة المستبسلة .. ووهنت أسلحة الغدر والبغى حيال الاجماع والاتحاد والايمان .. فلجأ المحتلون وأدواتهم الى سلاح التفرقة والوقيعة ..

زادوا رواتب بعض الموظفين .. وأفرجوا عن بعض المعتقلين .. واحتضنوا بعض النكرات ووضعوهم فوق الرءوس ..

وظلت الثورة تهب حينا بعد حين .. في مكان بعد مكان .. وظلت السلطة العسكرية البريطانية تتذبذب بين العدوان والسكون .. وبين الاضطهاد والملاينة ..

وفي ١٨ من يونية وقعت معاهدة الصلح . فأوقفت المحاكم

العسكرية التي كانت سوط عذاب يتعقب الثوار في كل مكان .. والغيت الرقابة ..

وبدأ السلاح الجديد ـ سلاح التفرقة والوقيعة ـ يسفر عن ضحاياه ..

ففي شهر يوليه حدث أول انشقاق في الوفد بفصل عضويه صدقي وأبي النصر ..

وفي ١٥ من نوفمبر سنة ١٩١٩ سقط الزعيم الوطني محمد فريد صريع جهاده أكثر من ربع قرن ..

مات فريد في منفاه ببرلين . بعد غربة ثمانية أعوام .. وبعد نضال أعوام طوال أفنى فيها ثروة من الضياع الموروثة ومن المنصب الذى ترنو اليه الابصار .. ومن كسب المحاماة ـ وهو من هو قدرة وكفاية ومكانة ـ ومن الايام والليالي والاشهر والسنوات التي قضاها جاهدا ناصبا لا يكف عن البذل والتضحية والفداء .

وشاء الذين قطفوا ثمار غرسه أن يظل البطل المجاهد غريبا في موته .. حتى تطوع مصري وطني ـ الحاج خليل عفيفي التاجر بالزقازيق ـ بنقل رفاته الى مصر ، ليدفن في القاهرة ، في ٨ من يونية سنة ١٩٢٠ ..

واستمرت الثورة في مصر قائمة .. وزعماؤها المحدثون يقيمون في أوروبا ..

واستمرت معاول القمع توجه الى صدور الثوار .. فعقدت المحاكمات الجائرة في أنحاء البلاد .. في بني سويف، ودير مواس، وأسيوط ، والواسطى ، وشلش ، وصنبو ، وملوى ؛ والمنيا وفاقوس ، ورشيد ، وكفر الشيخ ، وسمنود ، ومطاى ، وكوم امبو، فضلا عن القاهرة والاسكندرية . . وترددت أسماء قضية عبد الرحمن فهمي ، وقضية الاغتيالات .. وغيرهما ..

لجنة ملنر :

وفى ٩ من سبتمبر تألفت لجنة ملنر برياسة لورد ألفريد ملنر وزير المستعمرات ·· فقامت مظاهرات الاحتجاج فى القاهرة والاسكندرية ··· وتساقط الضحايا من جديد ···

وفى ١٤ من نوفمبر أعلنت دار الحماية عن قدوم اللجنة ومهمتها هى : اقتراح النظام السياسى الذى يلائم مصر تحت الحماية ··

وتلهبت البلاد بأسرها ·· واستقالت وزارة محمد سعيد ··

وفى ٢١ من نوفمبر تألفت وزارة يوسف وهبة ··· واجتمع الشعب القبطى فى الكنيسة المرقسية الكبرى معلنا سخطه على يوسف وهبه لقبوله الوزارة ··

وفى ٧ من ديسمبر وصلت لجنة ملنر ··

وفى ٨ من ديسمبر أضرب الطلبة ··

وفى اليوم التالى أضربت القاهرة كلها وأغلقت المحال واحتجت جميع الهيئات ·· وقاطعت الامة كلها تلك اللجنة التى قدمت الى مصر لبسط الحماية ··

وفى ١٢ من ديسمبر أضرب المحامون أسبوعا ··

واحتج الموظفون ·· وعلماء الازهر ··

وانتهت سنة ١٩١٩ ولم تنته الثورة ··

عام جديد :

وحل عام ١٩٢٠ والشعب المتماسك لم يزل فى موقفه ·· فى غيبة الوفد وزعيمه ··

ولكن السلطان فؤاد وحكومته كانوا يستظلون بظل الحماية البريطانية .

وعندما ولد له فاروق فى ١١ من فبراير ... سارع يبلغ المندوب السامي ووزارة الخارجية البريطانية بمولده ... ويبشر المحتلين بنبت جديد من السلالة التى انبتت اسماعيل وتوفيق ..

وفى ١٥ من فبراير أبلغت دار الحماية فؤادا اعترافها بنجله ، ووضعت الدولة المحتلة نظام توارث العرش لفاروق ونسله من الذكور .

وفى ١٦ من فبراير أبرق فؤاد بالشكر لملك الانجليز ..

وغضب الشعب.. وأعلن الحزب الوطنى ولجنة الوفد المركزية استنكارهما لعبث البريطانيين بالعرش وذلة السلطان وتهافته على قبوله ...

وفى ١٦ من مارس عادت لجنة ملنر من حيث أتت ..

وفى ١٩ من مارس اجتمع أعضاء الجمعية التشريعية المعطلة منذ سنة ١٩١٤ وأعلنوا بطلان الحماية واستقلال مصر والسودان استقلالا تاما ..

واستقال يوسف وهبه .

وتألفت فى ٢٢ من مايو وزارة توفيق نسيم ربيب المحسوبية الانجليزية ، والعبد الخاضع لمشيئة فؤاد وهواه ..

ووسط هذه الاحداث ظل الشعب على تماسكه ... ولكن معاول اليأس ألانت قناة سعد وصحبه فى باريس .. فقبلوا دعوة ملنر وسافروا لمفاوضته فى لندن ..

وبدأت المفاوضات فى ١٧ من يولية واستمرت حتى ١٨ من أغسطس ..

ثم أجلت وسافر محمد محمود وعبد اللطيف المكباتى ولطفى السيد وعلى ماهر الى مصر ليتعرفوا رأى الامة فى مشروع الاتفاق ..

وعاد المندوبون الى باريس فى شهر أكتوبر ... فاجتمع الوفد واستخلص من تقاريرهم تحفظات الامة على المشروع ..

ودعى الوفد الى لندن لاستئناف المفاوضة .. بعد أن انضم اليه عدلى واستؤنفت المفاوضات فى ٢٥ من أكتوبر على أساس تحفظات الامة ..

وفى ٩ من نوفمبر أعلن لورد ملنر قطع المفاوضات فجأة .

وعاد الوفد الى باريس ..

نهاية الثورة :

وحل عام ١٩٢١ ..

وفى شهر فبراير صرح ونستون تشرشل الذى خلف لورد ملنر فى وزارة المستعمرات بأن مصرجزء من الامبراطورية البريطانيه المرنة ..

فهب الشعب ثائرا محتجا ..

وسارع الانجليز الى التراجع .. فأبلغ المندوب السلطان فؤاد فى ٢٦ من فبراير أن الحكومة البريطانية تعتبر الحماية علاقة غير مرضية وتدعو مصر للمفاوضة ..

واضطر فؤاد أن يتخلى عن خادمه توفيق نسيم فقبل استقالته فى ١٥ من مارس ..

وفى ١٧ من مارس تألفت على كره منه وزارة عدلى يكن ، على أساس برنامج يتضمن المفاوضة فى استقلال مصر ، ودعوة الوفد

للاشتراك فيها وعرضها على جمعية تأسيسية تنظرها وتضع دستور البلاد .

وقامت مظاهرات الاغتباط والتأييد ..

وعاد سعد بناء على دعوة عدلى .. فوصل الاسكندرية فى ٤ من ابريل والقاهرة فى ٥ من ابريل .. وسط الحفاوة الشعبية الجياشة ..

وانتهت الثورة التى نهض بها الشعب فى سنة ١٩١٩ والتى ضحى فيها بالآلاف من الشهداء والجرحى .

انتهت دون أن تكسب مصر شيئا سوى الوحدة التى انتظمت ابناءها جميعا والتى صهرت فى بوتقتها أبناء الوافدين اليها من كل عنصر شرقى ..

ولكن هذه الوحدة العزيزة ذاتها قد أوهنها الصراع على العرض الزائل .. على المنصب أو الجاه ..

فقد توقفنا عن صراع الشياطين ليصارع بعضنا بعضا .. هكذا شاء الزعماء .. فى ذلك الحين !.

أنانية وغلواء :

عاد سعد زغلول ، تلبية لدعوة عدلى ، كى يشترك فى المفاوضات مع الرجل الذى أسمى وزارته « وزارة الثقة » ...

ولكنه لم يلبث حتى تقدم باشتراطاته .. التى ختمها بطلب الغالبية والرياسة للوفد فى هيئة المفاوضات ..

وعز على عدلى ــ وهو رئيس الحكومة ــ أن يمتهن سعد مركزه، وأن يطالب لنفسه بالرياسة ..

وكان سعد أقوى من عدلى ، لانه يملك سحر البيان‥ ويملك زمام الملايين ‥ فبدأت طعناته تدمى غريمه وتنال منه .

ومضى عدلى فى سبيله يترنح من الضربات ‥

وحدث الإنقسام الثانى فى الوفد فى ٢٨ من ابريل سنة ١٩٢١ .

وتألف الوفد الرسمى للمفاوضات برياسة عدلى فى ١٩ من مايو ‥ واحتدم أوار المعركة الداخلية بين السعديين والعدليين ‥ وشهدت البلاد مهزلة توشك أن تكون حربا أهلية ‥ وفى سبيل رياسة هيئة المفاوضات ‥

وبدأت مفاوضات عدلى كيرزون فى هذا الجو الصاخب. فكان المشروع الانجليزى جديرا بالرفض السريع ‥ لذلك قطع عدلى المفاوضات وغادر لندن فى ٢٠ من نوفمبر ‥

وتقدم سعد خطوة أخرى فاستقدم بعثةمن نواب حزب العمال البريطانى فى سبتمبر وراح يطوف معها الاقاليم ليطلعها على مبلغ تأثيره في الجماهير ‥

وفى ٨ من ديسمبر استقال عدلى ‥

وأنذرت السلطة البريطانية سعدا ثم اعتقلته وأصحابه فى ٢٣ من ديسمبر ‥

وهب الشعب مرة أخرى يغالب عدوان المستعمر ‥ وعاد الخارجون من الوفد الى حظيرته ‥

ونودى بالمقاومة السلبية فى ٢٣ من يناير سنة ١٩٢٢ ‥. وبمقاطعة البنوك والسفن والشركات والتجارة الانجليزية ‥

وفى ٢٥ من يناير اعتقل الانجليز أعضاء الوفد جميعا فتألفت هيئة وفدية جديدة ‥

وأسقط فى يد الاستعمار فأفرج عن أعضاء الوفد فى ٢٧ من يناير ..

تصريح ٢٨ فبراير :

وكانت الوزارة قد ظلت شاغرة أكثر من شهرين.. فقد جبن المستوزرون أن يخرجوا على الاجماع ..

فألقت معاول البغي والعدوان سلاحها... واستلانت وتقدمت تعرض الوزارة على عبد الخالق ثروت ..

ووجدها ثروت فرصته ، فاشترط لقبوله الوزارة :

١ ــ عدم قبول مشروع كيرزون .

٢ ــ الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال ..

٣ ــ اعادة وزارة الخارجية والتمثيل السياسى .

٤ ــ انشاء برلمان من مجلسين تكون له السلطة على أعمال الحكومة .

٥ ــ اطلاق يد الحكومة المصرية فى ادارة شئون البلاد دون شريك .. الخ .

وسافراللنبى ليقنع حكومتهبذلك الحد الادنى لمطالبالمصريين.

وأذعنت بريطانيا، فأعلنت تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ بانهاء الحماية والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة والغاء الاحكام العرفية .. ولكنها أثبتت فى ذلك التصريح تحفظاتها الاربعة ..

وتلقف فؤاد التصريح الذى استخلصه ثروت ، وسط الثورة المشبوبة ، والدماء المسفوكة .. فقد اتاح له ذلك التصريح أنيصبح « ملكا متوجا » فى ١٥ من مارس سنة ١٩٢٢ ..

وســارع ثروت فألف لجنــة الدستور فى ٣ من ابريل ســنة ١٩٢٢ ٠

وطعن سعد على اللجنة وعلى الدستور الذى تضعه ٠٠

وفى ١٣ من ابريل أصدر فؤاد أمرا ملكيا بنظام توارث العرش الذى كان قد تلقاه من سادته الانجليز من قبل ٠

وفى ٢١ من أكتوبر قدمت لجنة الدستور تقريرها ٠

واعتقلت الســلطة البريطانية أعضــاء الوفد وســاقتهم الى المحاكمة ٠٠

وفى أكتوبر سنة ١٩٢٢ تألف حزب الاحرار الدستوريين ٠٠

وفى ١٦ من نوفمبر قتل اثنان من أقطابه بعد اجتماع له هما اسماعيل زهدى وحسن عبد الرازق ٠٠

وهكذا امتد القتال بين الاخوة بعد وحدتهم الشاملة ٠٠

وأفلحت دســائس توفيق نسيم رئيس الديوان ٠ فاســتقال ثروت فى ٢٩ من نوفمبر وتولى نسيم فى ٣٠ من نوفمبر ٠٠ وشرع لتوه فى تمزيق مشروع الدستور ليغتصب لسيده حقوق الشــعب مصدر السلطات ٠٠ كما قبل حذف النص الخاص بالسودان ٠٠

وثارت مصر كلها فى وجه نســيم فتوارى عن الانظار فى ٢٥ من فبراير سنة ١٩٢٣ ٠

دستور سنة ١٩٢٣ :

وماطل فؤاد فى اصدار الدستور ٠٠

وفى ١٥ من مارس تألفــت وزارة يحيى ابراهيم فاســتمرت ثورة الشعب حتى صدر الدستور فى ١٩ من أبريل ٠٠

وفى ٣ من مارس أفرج عن سعد ثم عن المعتقلين ، والمحكوم عليهم ..

ووصل سعد الى الاسكندرية فى ١٧ من سبتمبر فاستقبله الشعب أجمل استقبال ..

وأجريت الانتخابات الأولى .. فأسفرت عن غالبية وفدية تشبه الاجماع وحينئذ أثنى سعد على الدستور .. وألف الوزارة فى ٢٨ من يناير سنة ١٩٢٤ .

ولم يستطع فؤاد أن يحبس ضغينته على سيادة الشعب فأثار أزمة تعيين الشيوخ ... وانتصرت ارادة الشعب ..

وبدأ سعد فى وزارته يلقى على الاحزاب المتعاقبة دروس العصبية الحزبية .. ويعلن على رءوس الاشهاد أنه يريدها زغلولية لحما ودما ..؟

وتمت محادثات سعد ـ ماكدونالد من سبتمبر الى أكتوبر سنة ١٩٢٤ فأتيح لسعد أن يقف أول مواقفه الوطنية الخالدة ..

وفى ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٢٤ وقعت حادثة مقتل السردار .. وقدم انذاران بريطانيان اقترنا باحتلال جمرك الاسكندرية ..

واستقال سعد فى ٢٣ من نوفمبر ..

وفى ٢٤ من نوفمبر احتج البرلمان على الانذارين ..

سياسة الشد والجذب :

ووجدها فؤاد فرصة سانحة ، فعهد بالوزارة الى أحمد زيور ليسلم على طول الخط .. وليقوم بالانقلاب الدستورى الأول فيحل مجلس النواب فى ٢٤ من ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

وفى ٢٥ من يناير سنة ١٩٢٥ ألف فؤاد حزبا للسراى أسماه حزب الاتحاد ليغتصب باسمه سلطات الشعب ..

وأجريت انتخـــابات سنة ١٩٢٥ فى ظل الارهاب والضغط والاكراه ..

ولكن الشعب قال فيها كلمته ..

عندئذ حل زيور مجلس النواب يوم انعقاده فى ٢٣ مارس .

وفى ٢١ من نوفمبر اجتمع البرلمان من تلقاء نفسه برغم ارادة فؤاد وحكومته ..

وفى ٨ من ديســـمبر وضعت حكومة زيور قانـــونا جديدا للانتخابات رفضته الأمة على لسان لجنةالاحزاب المؤتلفة التى تألفت فى ٢٦ من يناير سنة ١٩٢٦ .

وفى ١٩ من فبراير اجتمع المؤتمر الوطنى فى حديقة دار محمد محمود ... وأعلن مشيئة الشعب ..

وفى ٢٢ من فبراير أذعنت الحكومة لتلك المشيئة وأصدرت مرسوما باجراء الانتخابات طبقا للنظام المباشر ..

وتمت انتخابات سنة١٩٢٦على أساس من الاتفاق بين الأحزاب على الترشيحات ..

وفى ٢٧ من يونية تألفت وزارة عدلى الائتلافية ..

وفى ١٩ من يولية استقال عدلى وأعقبه عبد الخـــالق ثروت بوزارته الائتلافية أيضا ..

وفى٢٣ من أغسطس مات سعد زغلول علىائتلافه وقوميته .. فاختتم حياته زعيما وطنيا حقا .. غلبت أصالته كل شائبة ..

بل لقد استحق ذلك الفخر منذ موقفه فى مفاوضاته ســـنة ١٩٢٤ ..

وفى يوليه سنة ١٩٢٧ بدأت مفاوضات ثروت ـ تشمبرلين ٠٠ وانتهت الى مشروع رفضه مجلس الوزراء فى ٤ من مارس سنة ١٩٢٨ ٠ فاستقال ثروت ٠٠

معاول الشقاق :

وفى ١٧ من مارس تألفت وزارة النحاس الاولى ٠٠

وفى يونيه سنة ١٩٢٨ تصدع الائتلاف ٠٠ وأقيلت الوزارة ٠٠ وتولى الحكم محمد محمود فحل مجلس النواب فى ١٩ من يوليه وعطل الدستور ٠٠

وفى مايو سنة ١٩٢٩ بدأت مفاوضات محمد محمود هندرسون ٠

وفى ٣ من أكتوبر تألفت وزارة عدلى الثالثة ، وأجريت انتخابات سنة ١٩٢٩ ٠

وفى أول يناير سنة ١٩٣٠ تألفت وزارة النحاس الثانية ٠٠ وبدأت مفاوضات النحاس هندرسن فى ٦ من فبراير ٠٠

وفى ١٧ من يونيه استقالت وزارة النحاس ٠٠

وفى ٢٠ من يونيه ألف اسماعيل صدقى الوزارة ، فألغى الدستور ووضع دستور سنة ١٩٣٠ ، وألف حزب الشعب ، فكون منه ومن حزب الاتحاد برلمان صدقى المشهور ٠٠

وفى ٢٢ من أكتوبر حدث انشقاق جديد فى الوفد ٠٠

وفى سبتمبر سنة ١٩٣٣ استقال صدقى وخلفه عبد الفتاح يحيى حتى قدر للنظام المصنوع كله أن ينهار ٠

وجاء توفيق نسيم مرة أخرى فى ٦ من نوفمبر سنة ١٩٣٤ ٠٠ فألغى دستور صدقى وتوانى عن اعادة دستور سنة ١٩٢٣ ٠٠

وتصاعدت أصوات المطالبة بالدستور فتدخل الانجليز بتصريح سمويل هور .. وعندئذ قامت ثورة الشباب فى سنة ١٩٣٥ التى أريقت فيها دماء الشهداء برصاص الانجليز من كونستبلات البوليس المصرى .. فى يومى ١٣ و ١٤ من توفمبر .

وحمل الشـــباب رجال الاحزاب على الائتلاف فتـكونت الجبهة الوطنية التى كتبت الى فؤاد فى ١٢ من ديسمبر تطالب بدستور سنة ١٩٢٣ ..

وعاد الدستور .

واستقال توفيق نسيم فى ٢٢ من يناير سنة ١٩٣٦ ..

وفى ٣٠ من يناير تألفت وزارة على ماهر الاولى ... وتألف وفد المفاوضات على أساس مشروع النحاس ـ هندرسن ..

وفى ٢٨ من أبريل مات فؤاد ، مطمئنا الى ماغرسه فى وحدة الشعب من بذور الصراع والشقاق ..

انتصار الشعب

مات فؤاد ، فجلس على العرش الذى أجلسه عليه الاستعمار وكفله لذريته من بعده ، ولفاروق الصبى ، وهو لم يزل بعد فى السادسة عشرة ..

ونحن نكتب اليوم للتاريخ، ولا نود أن نؤرخ لذلك الملك الذى طويت صفحته ولم تزل تتردد أنفاسه ، لأنه حديث يطول ، ولأنه تاريخ عشناه وتعاقبت تحت أعيننا أحداثه... ولأن رجال الصحافة — فى مصر والعالم كله — وبعض الكتاب ، قد كفونا هذا الجهد حين كشفوا لنا عن الخفايا والاسرار ..

فلم يبق لنا اذن الا أن نبلغ خاتمة الكتاب .. خاتمة النضال الذى نهض به هذا الشعب طوال مائة وخمسين عاما .. فى وجه العدوان الفرنسى والانجليزى والعثمانى .. وفى وجه طغيان محمد على وسلالته ... وفى وجه الاستعمار الانجليزى . وفى وجه الفساد والبغى والمظالم الهوجاء ..

ان عهد فاروق ، الذى استطال ستة عشر عاما ، كان جديرا بتلك النهاية .. أما وقائعه فتتذكر فى كلمات قصار .

كان الصبى — عند وفاة أبيه — غريبا فى انجلترا .. وكان حوله وفى انتظاره الكثيرون من صنائع الاستبداد ودعاته .. والكثيرون من عبيد السلطة والجاه والنفوذ.. فتنافس أولئك وهؤلاء فى صنع هالة من الدعاوى المفتراة أحاطوا بها الفتى الغرير وخدعوا بها الابصار وهزوا شغاف القلوب ..

وكان الشعب قد كفر بقادته وزعمائه ، فآمن بذلك الاله الصغير ، ومضى يرقب على يديه الامن والاستقرار . بعد أن قنع ساسته « بوثيقة الشرف والاستقلال » .

وشب فاروق عن الطوق، والساسة والاحزاب وعباد المناصب يقتتلون على الاسلاب .. وهى حكم الشعب والعبث بمصائره .

وكان فريق منهم يرتمى تحت أقدامه ويستظل برحابه .. وفريق يلوح بالدستور فى رجاب آخر غير رحابه ..

وكفر الشعب بآخر مقدساته .. كفر بالدستور الذى امتهنه حماته .. وكفر بالمقتتلين على المغانم .. وكفر بالصبى الذى اجلسه يوما على عرش من القلوب .

وكان الفضل الاول لفاروق .. ولذلك أهديناه له الطبعة الاولى من هذا الكتاب ..

نعم .. فقد كان فاروق فاجرا .. فكشف عن وجهه أقنعة الزيف والنفاق .. ومزق بيديه حجب الخديعة والرياء .. وأتاح للشعب المخدوع ـ لاول مرة ـ أن يعرف حاكمه على حقيقته ..

وتبين الشعب أخيرا أن فاروق كان فذا فى جرائمه وخطاياه .. ولكنه لم يكن يعرف ـ قبل هذا الكتاب ـ أنه لم يكن فذا ..

فقد ورث غدر محمد على وجبروته .. وصلف اسماعيل وغروره .. وخيانة توفيق ومروقه ..

أما الاستبداد والبغى . وأما الجشع وعبادة المال ، فقد سرت فى عروقه من أجداده جميعا .. وأما الرذيلة والانحلال فقد كانت لمابع الاستقراطية المرفهة فى كل حين ..

وقد كان الشعب محتفظا بروحه .. وان مزقته الحزبية العمياء والمطامع الهوجاء والمظالم النكراء ..

وعلى عرة من الطاغوت وأذنابه ·· ومن الفســاد وأربابه ·· ومن الاستعمار وحلفـــائه ·· ومن الاستبداد وأوليائه ·· نهض الشعب بآخر وثباته ··

وانتصر الشعب دون أن تراق قطرة دم ··

فقد كان فى صفوف جيشه نفر من أبنائه ، اجتمعت فيهم

نزاهة عمر مكرم وزهده ·· وشجاعة لطيف سليم وحكمته ، وبسالة أحمد عرابى واقدامه ·· وحماسة مصطفى كامل وحيويته·· ووطنية محمـد فريد وفداؤه ·· واجتمعت لهم ـ الى جانب ذلك ـ تجارب الماضى وعبر التاريخ ووعى العصر الحديث ··

هكذا استطاعت تلك الصفوة من أبناء الشعب أن تنتصر فى النهاية ··

فاقتلعت آخر الســلالة الغـادرة المارقة وألقت به الى عرض البحر ··

وكفرت بالحزبية ·· وآمنت بالوطنية ·

وأودت بالاقطاع لتخفت صوت التبطل وتصغى الى صـوت الحركةالدائبة والعرق المتصبب·· ولتبنى المواطن الصالح فىالارض الصالحة ··

وقضت على عوامل الشقاق لتخلق الوحدة الشاملة ··

والغت المزايا المغصوبة او المبذولة تمشيا مع منطق المساواة والعدل والكرامة ·

ومضت فىسبيلها تطالع العالم فى كليوم بدفعة الىالامام·· وتحصل للشعب المناضل فى كل يوم على حق مغصوب ··

ووجد الشعب فيها روحه قبل أن يجد فيها قيادته ·· فمضى

معهـا فى الطريق التى شـقها بجهاده فى تاريخـه الطويل ورواها بدمائه ودفن على جانبيها أشلاء ضحاياه طوال مائة وخمسين عاما ..

وهو اليوم لا يزال يمضى آمنا . وسيظل يمضى ولا يتوقف لأن قادته ينيرون له ذلك السبيل .

***

ومرة اخـرى : نحن نكتب للتاريخ ـ وهؤلاء القادة قـد دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه ولكنهم ـ مد الله فى أعمارهم ـ لم يدخلوا فى ذمة التاريخ ، والمفاخر التى كللت هاماتهم فى هـذه الفترة القصيرة لا تحسب شيئا الى جانب ما ينتظرهم فى مقبل الايام ..

فلندع اسماءهم الآن ، ولنتابع خطواتهم الى غاياتنا العليا ، واهدافنا البعيدة ..

***

الى هنا ، كانت خاتمة هذا الكتاب ، فى طبعته الاولى ، التى صدرت فى أوائل عام ١٩٥٣ عن جماعة القلم ..

ومضت سنوات عشر ، وتحققت آمالنا فى ثورتنا البيضاء .. فى هذه الحلقة المجيدة من حلقات نضالنا الموصول ..

وتعاقبت الأمجاد ، التى غيرت وجـه التاريخ ، فكان لزاما عليه أن يمسك بالقلم ، وأن يلهث فى أعقاب الزعيم الثائر ، الذى انبعث من ضمير الشعب المناضل ومن أعماق وجدانه ؛ ليقـود نضال الجيل الحاضر من نصر الى نصر .. وليحقق فى كل يوم املا كان أبعد من متناول الاحلام ..

وليس من شانى ان اطاول التاريخ فيما سجل حتى الآن من وقائع واحداث .. ولا ان اجاريه الى غايته ، فاستقرىء النتائج

أتعمق المدلولات .. وانما ادع ذلك كله للأجيال القادمة ، عندما تكتمل حلقة النضال الحاضر التى بدأها الشعب العربى فى مصر بقيادة زعيمه الثائر جمال عبد الناصر ، والتى تخطت الصعيد العربى ، والافروآسيوى الى النطاق الانسانى الشامل ، لتكون لها آثارها الايجابية — باذن الله — فى اقرار مبادىء الحق والعدل والكرامة والشرف ، وفى توفير سعادة المجتمع البشرى فى جملته فى ظل هذه المبادىء والمثل ..

ولكن الذى يعنينى ، أن امضى فى رحاب الصورة الباهرة التى رسمتها خطوات السنوات العشر الماضية ، فأقبس انعكاسات بعض أضوائها ، وأضع منها خاتمة اخرى جديرة بهذا الكتاب .. خاتمة يكللها الغار .. بعد أكثر من قرن ونصف قرن من الجهد الناصب ، والقتال الدائب والدم المبذول ..

واول الاضواء وأبهاها ، تخلص الجهاد الشعبى من أكبر عوائقه الى غاياته ، وهى : الملكية المستبدة ، والاستعمار الغاشم ، والاستغلال الاقطاعى ..

فأى نور هذا الذى بدد الظلمات المتكاثفة طوال مائةوخمسين عاما من حكم محمد على وسلالته الملتاثة .. وأية قوة تلك التى حطمت قيود الاستعمار المتراكمة على مدى ٧٢ عاما من بطش الانجليز وجبروتهم ، ومن الاعيبهم ودسائسهم .. وأية حكمة تلك التى بادرت فأول الرجعية والاستغلال فى معاقل الاقطاع والاحتكار ..

انه نور الثورة البيضاء ، وقوة العزمات الصادقة ، وحكمة القيادة الواعية ..

ثم انتشر النور وتلألأت الأضواء ..

تسلط الضوء الباهر على اخطار الاحلاف العسكرية على

سلام العالم وأمنه .. وهى المقـدمات الطبيعية للحـروب التى هددت المجتمع الانسانى بالخراب والدمار .. فكان مبدأ رفض الاشتراك فى هذه الاحلاف ، وسلوك سبيل الحياد الايجابى، الذى يعمل على ايجاد قوة فعالة تحول دون اعتراك القوتين المتنازعتين فى الشرق والغرب .. وتعبر عن الضمير العالمى الحر فى مطالبته بكف مخالب التسلح الذرى وغيرها من وسائل التخريب الشامل .. وقد كان الحياد من قبل سلبيا ينافق الجانبين المتخاصمين - فى سـعى كل منهما الى ابادة العنصر البشرى وتقـويض دعائم مدنيته ..

وساطـ الضوء الباهر على حقيقـة الوجـود الانسانى .. فعرفت الأمة العربية ــ فى مصر وخارجها ــ كيانها ومقومات عزها الغابر ، وواجبها حيال نفسهـا وحيال كافة الأمم والشعوب .. وبدأت تسلك سبيلها الطبيعى الى تحقيق وحدتهـا الشاملة التى مكنتها فى يوم من الايام من صنع التاريخ الانسانى - والحضـارة الانسانية والكرامة الانسانية .. على أسـاس ان مبادىء الحق والعدل والشرف ..

واذا ذكرت القومية العربية - كان لزاما ان يسجل بالفخر موقف الشعب العربى فى كل مكان من : سورية ، ومصر ، وان تكن تجربة الوحـدة التى قامت بينهما قد اعترضتهـا عوائق ، كان الشعبان قد أتقيا بها الى اعماق النسيان .. ولكنها تسللت الى سورية فى أعماق الظلام فأعملت معاول الرشـوة ، والخـديعة - واثارة المطامع والاحقاد ، وقدر لها أن تفرض الانفصال بالحديد والنار على الشعب العربى فى سورية الحبيبة ، وهو الذى صنع الوحدة من قبل بارادته .. وسارع الى نشدانها غداة خلصـته الصفوة المؤمنة من الطغمة الغادرة ..

أما فضل الشعب العربى فى مصر - فقـد فاض ولا يزال يفيض من مواقفه البطولية الواعية ..

فتح ذراعيه لاخوانه فى سورية حينما انعقد اجماعهم على الوحدة .. فلما تمكن دعاة الانفصال من حبس نوازع الوحدة فى الصدور ، وكبتها ، وتقييدها بأغلال البطش والخديعة حتى حين ، ترك لاخوانه فى سورية أمر أنفسهم ... ليعيدوها اذا شـــاءوا بارادتهم ، وايمانهم ، ووسائل كفاحهم ..

ومد يد المعاونة الصادقة الايجابية ، الى الشعب العـربى فى العراق ، فى وثبته على الرجعية والخيانة والســـير فى ركاب الاستعمار ، غير مبال بما بدا بعد ذلك من انحراف بعض مغتصبى السلطة .. فذلك تقع مسئولية تقويمه على الارادة الشعبية فى العراق .. وقد نهضت هذه الارادة الشعبية بمسئوليتها واعادت الشعب العربى فى العراق الى مكانه فى الصعيد العربى ..

وايد ـ بكل ما دخل فى مقدوره ـ جهاد الجزائر المكافحة .. ولم يزل يبذل لاخوته فى الجزائر كل ما يستطيع من معاونة الاخ العربى الذى استشعر واجبه منذ قدرت له نعمة السـبق الى الحرية والاستقلال ..

وهكذا فعل الشعب العربى فى مصر . عندما قامت الثورة التحريرية العربية فى اليمن .. وسيفعل عندما تتأذن ســـاعة التحرير فى فلسطين ، وفى كل قطر من أقطار الوطن العربى يعانى من الاستعمار او الطغيان أو الاستغلال ..

وعلى طريق النضال الشعبى فى مصر ، طوال الســـنوات العشر الاخيرة ، اقيمت ســدود ضخمة كانت خليقة أن تعـوق انطلاقاته .. ولكن أبناء الجيل الحاضر من المناضلين ، وقيادتهم الثائرة ، استطاعوا أن يزيلوا هذه السدود ، بل وأن يستمدوا من بعضها مزيدا من السرعة والتوفيق فى انطلاقتهم الى أهدافهم ..

كان تلكؤ الغرب فى بيع الاســلحة اليهم حافزا على تحطيم احتكار التسليح ثم على الانتاج الدفاعى على مستوى الصواريخ .

وكان رفض تمويل السد العالى ، حافزا على التعجيل باستعادة قناة السويس واستردادها لمن أقاموها بسواعدهم وفى أرضهم ووطنهم ..

وبدلا من جهاد أكثر من سبعين عاما لطرد المستعمر البريطانى ، أسفر جهاد أشهر قلائل ، فى سنة ١٩٥٦ عن طرد دولتين كبيرتين معتديتين هما انجلترا وفرنسا ، وفى أعقابهما ذيلهما الخسيس اسرائيل ، التى ولدت سفاحا اثر نزوة متهتكة من نزوات السياسة الاستعمارية ..

على أن ذلك النضال المتصل ، الذى احتشدت دواعيه وأسبابه فى تلك الفترة القصيرة ، لم يصرف الشعب المناضل عن اقامة وطنه الجديد .. الحر .. المستقل الذى يتمتع تحت سمائه كافة أبناء الشعب بالعدل ، والكرامة والرخاء .. بعد أن كانت وقفا على المستعمرين ، والاقطاعيين ، والمحتكرين ، والراسماليين المستغلين .. وقد مضى الشعب فى هذه السبيل وفقا للسياسة الاشتراكية التى انبثقت من آلامه وآماله ، وللتخطيط الذى استهدف استثمار كافة الامكانيات الوطنية استثمارا أمثل .

كذلك لم ينصرف الشعب المناضل عن مواجهة مسئولياته الضخمة تجاه واجبه التاريخى كقاعدة لحركة الطليعة العربية ، الهادفة الى تحرير الارض العربية ، والمواطن العربى ، من كل سيطرة أجنبية ومن كل استغلال خارجي أو داخلى استعمارى أو رجعي .. فواصل سعيه الى التعبئة الشعبية ، وتنظيمها ديموقراطيا على وجه يؤكد للأمة العربية دورها فى دفع التقدم الانسانى ، وأسفر ذلك عن تأليف المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، وعن اعلان الميثاق ، وعن تكوين الاتحاد الاشتراكى العربى .

ولعل أجدر خاتمة لهذه الفترة الأخيرة من مراحل النضال ، تلك الكلمات القصار التى وردت فى اعلان الميثاق :

ان شعبنا قد عقد العزم على أن يعيد صنع الحياة على أرضه بالحرية والحق بالكفاية والعدل بالمحبة والسلام .

ان شعبنا يملك من ايمانه بالله .. وايمانه بنفسه ما يمكنه من فرض ارادته على الحياة ليصوغها من جديد وفق أمانيه ..

نحن أعضاء المؤتمر الوطنى القوى الشعبية ، الممثلين لقطاعات الشعب فى الجمهورية العربية المتحدة ..

والصادرين عن ارادة شعبية تبرم أمرها فى اجماع ووحدة

ايمانا منا بالله وبما أنزل من شريعة الحق والخير والسلام ، وتقديسا لحق الانسان فى العزة والكرامة ، وفى الكفاية والعدل ، واستمساكا بحق أمتنا فى الحياة والتحرر والانطلاق ..

وتثبيتا لخطانا على طريق ثورتنا الانسانية والاجتماعية والسياسية .. وسعيا الى تحقيق التكافل وتذويب الفوارق بين الطبقات .

وتوكيدا لمعانى الفضيلة والايثار فى سلوك الفرد وصلات الجماعة .

وتجلية لطابعنا الشعبى وحياتنا الاصيلة فى اطار قيمنا الروحية ، الدينية والخلقية ..

واعتزازا بتراثنا فى الماضى وبجهادنا فى الحاضر وعملنا من اجل المستقبل .

ويقينا باننا جزء لا يتجزأ من الشعب العربى ، وأن أمتنا العربية امة واحدة .

وأداء لواجبنا التاريخى ، ورسالتنا الخالدة فى بناء السلام ، القائم على العدل .

بذلك كله ، ومن أجل ذلك كله ، نقر هذا الميثاق ونعلنه ، اطارا لحياتنا ، وطريقا لثورتنا ، ودليلا لعملنا من أجل المستقبل

وعلى الله قصد السبيل ..

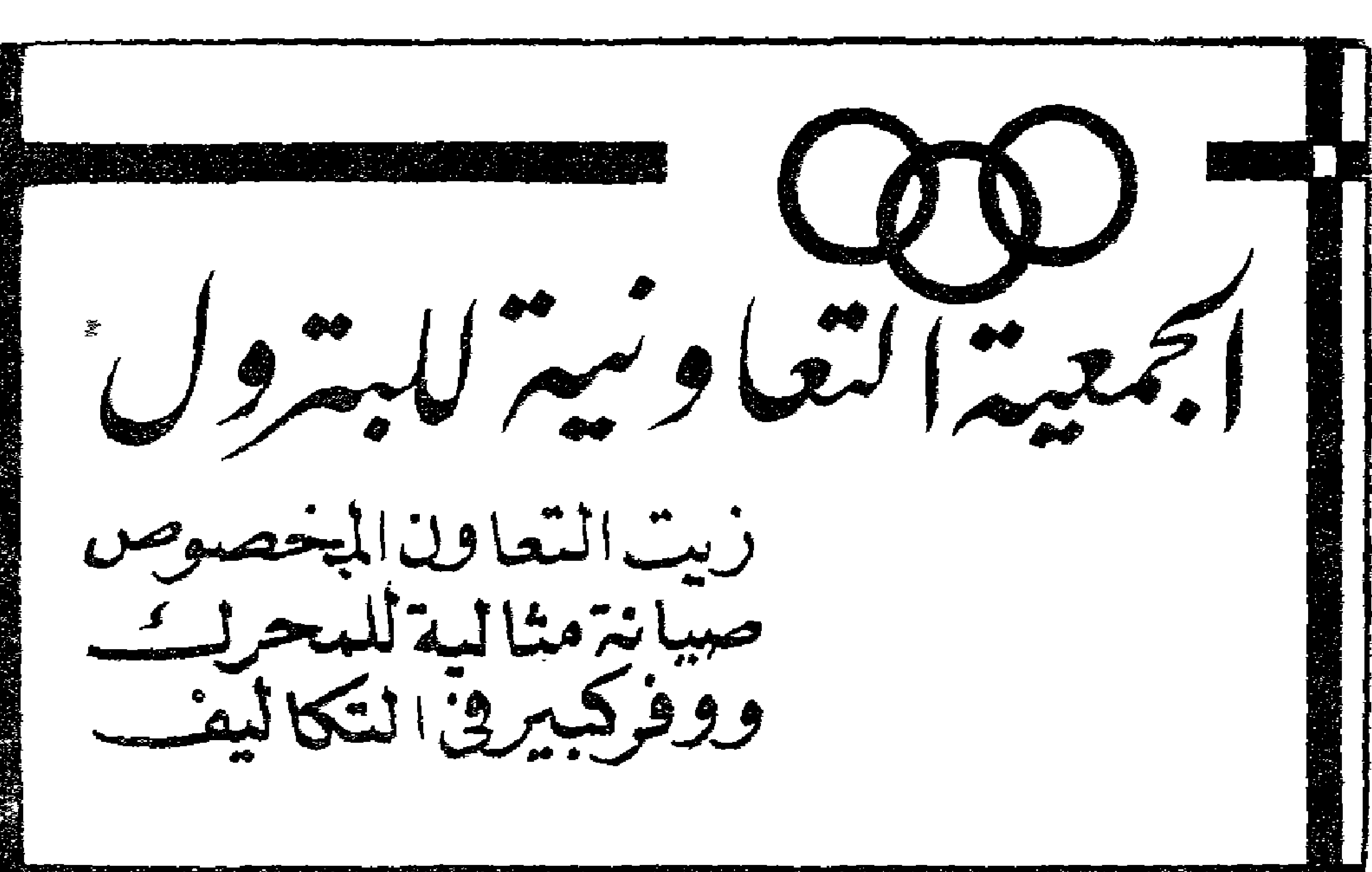
فهرس

الموضوع	الصفحة
اهـــداء	٥
مقدمة الطبعة الاولى	٧
هـــذا الكتاب	١١
الحلقة الاولى ـ من أعماق الظلمات	١٥
الحلقة الثانية ـ عبقرية شريرة	٤٧
الحلقة الثالثة ـ الوثبة العرابيـة	٧٧
الحلقة الرابعة ـ صراع مع الشياطين	١٠٩
انتصار الشباب	١٤٧

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

تطرح هيئة قنـــاة السويس فى مناقصـة عامة بوريد ٢٥٤٦٠٠٠ قطعة من ترابيع الجرانيت مقاس ٢٠ × ١٣ × ١٣ سم ، ٣٠ × ١٣ × ١٣ سم ، ٥٠ × ١٥ × ٢٠ سم وارد جزيرة سلوجة باسوان لاعمال الرصف للطريق بميـنـــاء بورسعيد وبور فؤاد وتطلب مستندات المناقصة من هيئة قناة السويس بالاسماعيلية (التخطيط والابحاث) بالاسماعيلية بالمجـــان وقد تحـددت الساعة الثانيـة عشرة من ظهر يوم الاثنين ١٧ يوليو ١٩٦٣ موعدا لفتح مظاريف العملية المذكورة ..



الدار القومية للطباعة والنشر

مطابع الدار القومية
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

العدد ٢٤٤ — الثمن ١٠ قروش